
محمد المخزنجي
صياد النسيم
قصص
دار الشروق


ساحر الكتب


الأعمال الكامله
t.me/kotbhm

صياد النسيم

محمد المخزنجي

صياد النسيم

دار الشروق

صياد النسيم

محمد المخزنجي

الطبعة الأولى ٢٠١٨

تصنيف الكتاب: أدب / قصص

٧ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
www.shorouk.com
dar@shorouk.com

رقم الإيداع ٢٩٤٣٩/ ٢٠١٧
ISBN 978-977-09-3459-3

تصميم الغلاف: هاني صالح

المحتويات

كيف صِرتُ طاهيا ماهرا في ليلة واحدة؟!

دون كتب طهي ولا سابق تأهيل، فجأة، وبعد ليلة محددة من شتاء ١٩٨٦، صحوت فوجدت نفسي طاهيا ماهرا، وأخذت تجليات هذه المهارة تتألق كلما واتتها الفرصة للظهور.

هذا لا يعني أن مهارتي تصاعدت من صنع الأطباق البسيطة إلى إبداع الأطباق المعقدة، لا، فالطبق البسيط شأنه شأن المعقد عندي، فملكة الطهو الطيب هذه تفجَّرت عندي دفعة واحدة، وفي شمول.

يكفي أن أتذوق أي طعام يروق لي، فأستنتج كامل أسراره: المواد التي يتكون منها، ومقادير هذه المواد، نوع التتبيلة، وطريقة الطهو. وكل ما أحتاج إليه وأنا أتذوق ذلك، أن أغمض عيني قليلا وأطلق مخيلتي. كما أنني ببعض هذه المخيلة، أُنجِز إضافات تجعل أطباقي أشهى من مثيلاتها في أشهر المطاعم بشهادات صادقة ممن تذوقوا ما أصنعه، أيا كان ما أصنعه. فكل الأطباق عندي ابتداء من طبق الفول المصري الذي «أوَضِّبُه» بعشرين لونا من «التحبيشة»، وصولا إلى ملفوف ورق العنب، وأرز «دقن الباشا» الذي أجيد فيه خمس خلطات. وقس على ذلك حلو الجولاب جامون الهندي، والبلوف الكازاخستاني، وحراق أصابيعه السوري، والطاجين المغربي، والبلميني الروسي، والفاهيتا المكسيكي، والمسخن الفلسطيني، والكبسة الخليجية، وفيليه عثمانلي التركي، والمقليات الصينية، وغيرها كثير. كثير.

تفجرت عندي هذه الموهبة المفاجئة منذ ثمانية عشر عاما وأنا أعزب، وصارت الآن «علامة مسجلة» تجعل أولادي يصفقون

ويهللون عندما أدخل المطبخ في يوم عطلة، ثم يهتفون على مائدتي العامرة: «يعيش بابا شيف مصر الأعظم.. يعيش يعيش يعيش». أما زوجتي فإنها تكون في حالة من الصراع الداخلي الذي لا تستطيع إخفاءه تماما، إذ تشعر بالانسحاق أمام احتمال تفوقي عليها في شأن من أهم شئون المرأة والبيت، ولا تستطيع مع ذلك مقاومة سحر مذاق أكلاتي فتهمس هازة رأسها: «والله طيب. طيب جدا». عندئذ أُضطر للتواضع مذكرا الأولاد بالأطباق الشهية التي لا تكُف أمهم عن تقديمها لنا، كل يوم كل يوم، وعلى مدى سنوات، بينما أنا لا أطبخ إلا في المناسبات النادرة والمواسم. ترد زوجتي المُجامَلة بأحسن منها، ونظل نتعازم: «أكلِك انتِ الأطيب» «لا انتَ أكلَك أطيب»، «لا إنتِ، لا إنتَ»، حتى يفزع فينا الأولاد لنكف ونتركهم «يُركِّزون» في الاستمتاع بالأكل. نسكت وكلانا يعرف من هو الأمهر في الطهي، وهي مهارة لا تتوقف عند حدود الشكل والمذاق، ولكن تتعداها إلى تلك الأكروبات التي يقوم بها الطهاة المُحنكون أمام الكاميرات وجماهير مهرجانات الطهو، مثل جعل بخار القدْح يَؤج في نار عظيمة تدفع بأحرِّ الشهقات إلى الصدور ثم تنطفئ للتو في أمان، وجعل قُرص العجة يطير من الطاسة عاليا في الهواء منقلبا على نفسه ثم تلتقطه الطاسة على وجهه الآخر، دون أدنى تجعيدة أو انثناء ولو على طرف أطراف دائرته التامة المُلوَّحة الجميلة. هذا إضافة لخفة ودقة الحركات التزامنية التي تجعلني قادرا على تجهيز خمسة أو ستة أنواع في وقت واحد، دون أي تقصير في استكمال التسبيكة أو إتمام التخديعة أو إشباع النضج.

قد يبدو ما ذكرته للبعض نوعا من المبالغة التي تشي بالزهو.

ولست أنكر اغتباطي بحلول هذه الموهبة عليَّ أو تفجرها في نفسي، لكنني أبعد من ذلك أحس بالدهشة حيالها، بل بالغموض الذي أحاول إضاءته لنفسي قبل أن أضيئه للآخرين. فقبل تلك الليلة من شتاء ١٩٨٦ ظلت الدنيا تمطر لثلاثة أيام كاملة، مطرا لم تعرفه بلادنا أبدا من قبل. على ذلك أجمع الناس وبخاصة كبار السن منهم، وهو ما يمكنني تأكيده في حدود عشرات الشتاءات التي عشتها من قبل وحتى الآن: مطر غزير، عنيف ومتواصل يبعث على الإحساس بالرهبة، حتى إنني ومثلي كثيرون لامسني ولامسهم الخوف من أن تكون هذه بداية لنهاية العالم، لحدوث طوفان جديد يغرق الأرض، أو يغرق بلادنا على الأقل. هكذا حسِبنا هذا المطر المصحوب ببرد استثنائي وبروق ورعود ورياح عاتية ونحن وراء الأبواب المصطكة والنوافذ الراجفة. وكنت من وراء الزجاج المُغبَّش بسيل المطر أراقب الدنيا في الخارج وهي تغرق في البلل، وتتحول شوارعها الخالية من البشر والحيوانات إلى أنهار موحشة تبدو صفحاتها الرمادية المندفعة وكأنها تغلي بفعل ما ينهمر عليها من زخات مسعورة. وفي منتصف أيام هذا المطر، تحديدا في ظهيرة اليوم الثاني، أبلغني أحد الأصدقاء عبر الهاتف أن أحب شعراء بلدنا إلى نفسي وأعظمهم في رأيي قد تناول جرعة زائدة من دواء مهدئ أو مسكن عن طريق الخطأ وتم نقله إلى المستشفى.

* * *

لا أعرف لماذا لم أنتبه لخطورة النبأ منذ البداية. لعله ذلك المطر هو الذي أغرق الأمر في خضم طوفانه المنذر فلم أتابع تطورات

حالة الشاعر. كنت حبيسا في بيتي شأن معظم الناس، ولم تكن لي علاقة مباشرة بالقريبين من الشاعر أو المحيطين به. ولعل إحساسي الراسخ بعظمته ووجوده الهائل في حياتنا، أو حياتي أنا على الأقل، هو الذي أبعد عن ذهني أي احتمال لغيابه. لكن في اليوم الثالث من أيام المطر المرعب ذاك، ضربتني صاعقة وأنا واقف وراء الزجاج مراقبا الدنيا التي تغرق. كدت أتهاوى على الأرض غير مُصدِّق ما سمعته للتو من المذياع وراء ظهري: لقد فارق الشاعر الحياة! وجُنَّ جنون المطر الذي كنت أسمعه ولا أبصره، لأنني لم أكن أرى ما أمامي، بل أُحدِّق في داخلي الذي انطفأت فيه الأنوار بغتة. كان المطر الأشد عنفا في حياتي يجلد نفسه على السقوف والجدران والأبواب والنوافذ بضربات سياط قاسية، وبدا أن العالم سينهار متفتتا على وقع هذا المطر الوحشي. تصاعد عنفه إلى حد مخيف، مخيف، ثم همد فجأة كاشفا عن وحشة العالم مغسولة جلية.

ولأنني لم أستطع أن أريح نفسي قليلا بالانفجار في البكاء، وجدتني أترنم مذبوح الصوت بوتريات الشاعر التي أحفظها جميعا، وأدور في الغرفة مترنحا مع هذا الترنُّم وكأنني في عديد. كانت تلك «الوتريات» أرق أعماله وأعمقها وأكثرها رفيفا وتحليقا، وكنت وما أزال أراها أرفع من رباعيات الخيام، وتضارع أعذب أغنيات طاغور، وتبلور أفضل تأملات الشعر والحكمة الإنسانيين، بصفاءٍ عجيب، ولعب جميل مدهش.

نمت بعد ذلك مكتئبا، وظلت الكوابيس تمزق نومي حتى الشروق. نهضت مختنقا ثم عاودت النوم، ولم أستيقظ من هذا النوم الثاني

الخالي من الكوابيس والأحلام إلا قرب المغرب. كان هناك طَرقٌ لحوح على الباب. غالبت دوَارًا كان يحوم في رأسي وذهبت لأفتح ففوجئت بالطارق.. كان أحد فناني الإسكندرية التشكيليين وأحد المتيمين مثلي بوتريات الشاعر. كانت أول وآخر مرة لقيته فيها منذ سنتين على شاطئ مدينته الجميلة. تبادلنا يومها، فيما طرقناه من أحاديث الفن والأدب، إعجابنا المشترك بالوتريات، وأخذنا ينشد كل منا وترية، فيرد عليه الآخر بغيرها.

لم نَصِر أصدقاء حميمين، ربما لبعد المسافة، وربما لاختلاف أنشطتنا، لكنني لم أندهش كثيرا عندما وجدته أمامي، فقد أدركت على الفور دافعه لهذه الزيارة، إذ إنني أنا نفسي منذ سمعت بالخبر مكثت أحس وكأنني نُبذت فجأة في الفضاء الكوني المظلم من دون صديق، أو رفيق، أو أي قريب أو بعيد من البشر. بدت الحياة التي نحياها بائسة ويائسة ومخيفة، وربما غير جديرة بأن نستمر فيها. ومن فرط خوفي من نفسي وغيومها التي تكاثفت، ولأن قضائي ما يقارب الساعة في الإنشاد الحزين للوتريات لم يرفع ثقل تلك الصخرة السوداء عن صدري، فإنني مكثت أهاتف الأصدقاء هنا وهناك لنتشارك في الحزن لعله يخف قليلا، وكنت أفكر في الذهاب والسفر إلى أي مكان يخرجني من عتمة نفسي قبل أن أسقط في جب النوم. ثم صحوت لأُفاجأ بصاحبي السكندري، تشبثت به وقد صار على الفور قريبا مني أقرب ما يكون حتى نسيت معه كل تكلُّف وكأنه من أصدقاء الصبا الحميمين. أخذنا ننتقل ونحن نتحادث من دور شاي إلى ثان إلى ثالث إلى رابع حتى فاتنا العد ولم أكتشف إلا في آخر الليل أنني لم أقدم له طعاما، وهو لا بد جائع، لأنني

نفسي بدأت أحس بشدة الجوع، ثم إنه قادم من سفر. كنا نتشبث أحدنا بالآخر طول الوقت حتى إننا ظللنا نذهب إلى المطبخ لنعد الشاي معا فلا ينقطع تواصلنا بالرؤية وتبادل الأحاديث التي تركناها تمضي في كل اتجاه. ولما ذهبنا إلى المطبخ معا لنُعدَّ طعاما لم أجد لديَّ ما يكفي لإسكات جوع كبير بدأ في الصراخ، فدعوت صاحبي للخروج معا لنبحث عن وجبة مشبعة.

كانت الساعة تتجاوز الواحدة بعد منتصف الليل، وقد اعتادت مدينتنا جعله نهاية السهر في كثير من المقاهي والمطاعم، خصوصًا في الأحياء الشعبية، لكنني كنت أعرف عدة أماكن تواصل السهر حتى الفجر. مررنا عليها تباعا فوجدناها مغلقة، ربما بسبب بلل الشوارع والوحول التي خلفها مطر الأيام السابقة وبعض البرد الرَطب الذي كانت تغرسه تيارات هواء حادة في الأجسام والعظام. ولم نجد ساهرا في المدينة التي درنا شوارعها جميعا غير الدكان الصغير لهذا الرجل الضئيل الهرِم المشهور بتقديم ساندوتشات فلافل بالسمسم طيبة المذاق، وحوله بعض زبائنه الساهرين معه يتحادثون كما لو كانوا يعرفون بعضهم بعضا، ينتظرون وجباتهم المتأخرة التي أدمنوها على ما يبدو، ولا ينصرفون إلا بعد حصولهم عليها، بل يواصلون الوقوف حول الرجل يسامرهم ويسامرونه ويتسامرون معا، بينما يلتهمون ساندوتشات فلافله بشهية بالغة.

* * *

تتكون «نصبة» قلي الفلافل كما هو معلوم ومشهود من موقد النار وفوقه طاسة الزيت وبقربها ما يحمل أوعية عجينة الفلافل الخضراء

الفستقية في جانب، وفي الجانب الآخر مصفاة سكب الفلافل الحارة المحمرة بعد قليها، عدة الصنعة هذه كلها وبذلك الترتيب اعتاد الطعمجية في الدكاكين الصغيرة وضعها في الخارج أمام أبواب دكاكينهم، اتقاءً لشرٍّ أي حريق ينشب بسبب اقتراب الزيت المقدوح من النار، والتماسا لتبديد بخار القلي في هواء الشارع المفتوح بعيدا عن كتمة المحل الذي يكون صغيرا في العادة وغير مجهز بشفاط أو مدخنة. كما لا يُستبعَد العنصر الدعائي في جعل هذه «النصبة» خارج الدكان لتثير رائحة الفلافل المقلية شهية المارة فيقبلوا للشراء. لكن الرجل لم يكن يضع نصبة فلافِله خارج الدكان، كما كانت النصبة ذاتها فارقة الاختلاف عن النصبات الشائعة..

الكهل الضئيل في دكانه الغائر في أعمق تلافيف أقدم الأحياء الشعبية بمدينتنا وضع نصبته داخل دُكانته الصغيرة وإن في المقدمة القريبة من الباب، ربما ليتحاشى عناء إخراجها كل ليلة ثم إعادتها إلى الداخل. والمثير أن النصبة لم تكن تصدر عنها ضوضاء طشطشات القلي ولا هياج بخاره وإن كان العبق الشهي للفلافل الساخنة ماثلا وبقوة في المكان وفي قلب ذلك الليل والبرد والوحشة، ربما لأن الرجل اختار أن تكون كل أدوات صنعته صغيرة: موقد نار صغير بأنبوبة بوتاجاز صغيرة، طاسة قلي صغيرة وطبق عجينة فلافل صغير وكوبشة ومصفاة صغيرتان. وبالقرب من هذه النصبة كانت منضدة إعداد الساندوتشات صغيرة أيضا وكل ما عليها صغير، رصة أرغفة بلدي محدودة العدد، ورخامة بيضاء صغيرة نظيفة لتقطيع الخبز وتسوية الساندوتشات، طبق سلطة طماطم صغير، وطبق

سلطة طحينة مثله، ورصة أطباق تقديم صغيرة من الميلامين. نماذج مصغرة لا تُفرط في الضوضاء ولا البهرجة وتوحي بأن الرجل برغم شهرة فلافله لدى كل من جرب مذاقها، حدَّد لنفسه قدرا محدودا من الانتاج لعدد محدود من الزبائن في وقت محدد بعد منتصف الليل، ساعة أو ساعتين، ثم يشد جرار الباب المعدني للدكان من الداخل لينغلق عليه.

كان واضحا أن الرجل يعمل ويسكن في الدكان الصغير ذاته، فوراء نصبة الفلافل ومنضدة الساندوتشات، حشد الرجل محتويات معيشة كاملة وإن متواضعة شديدة التواضع: كنبة بلدية عليها مخدة صغيرة بالية ولحاف قديم مهترئ وعلى الأرض سلال بها ثياب وبضع حلل ألومنيوم صغيرة وحقيبة سفر بسيطة يغطيها التراب، وفي أقصى الركن الأيسر المواجه لركن النصبة ثمة ترابيزة متهالكة عليها قُلة في طبق صاج مضعضع وإلى جوارها طبق ألومينيوم واحد وكوب صغير واحد وموقد «سبرتو» صغير وكنكة قهوة صغيرة وعدة علب بلاستيك عِتِمت شفافيتها، لكنها تكشف عن بن في إحداها وسكر في أخرى. وعلى الحائط كانت هناك شماعة من الخشب والسلك تحمل جلبابا للنوم وطاقية من قماش الجلباب نفسه وفوطة، وثمة حوض صغير بصنبور نحاسي صغير مكسور ومربوط بمزقة من قماش يكاد يختفي وراء كتف الباب في ركن الدكان الأيسر، وفي الركن الأيمن على ارتفاع يوازي قامة الرجل قطعة مرآة مكسورة يغطيها غبش مصفر. «بيت صغير كامل» همست بذلك لصاحبي السكندري وأنا أومئ برأسي إلى محتويات الدكان، فهز صاحبي رأسه شاردا، وتتبعت شروده

لأجده يحدق بإمعان يقترب من الذهول في الرجل الضئيل الكهل أمام نصبة الفلافل. قدَّرت أنها حالة تأمل فني في عالم صغير مليء بالتشكيل والتكوين، فانصرفت باهتمامي إلى الرجل الضئيل الهرم وقد بدا لي مفعما بنوع من الاتساق العجيب في كيانه. تجلى عاشقا لعمله، ومستمتعا به، ومستغرقا فيه، إذ كان يميل ويستوي ويميل ويهز رأسه مدندنا بلحن خافت لم يكن واضحا لأسماعنا في وشيش النار ونشيش القدح وثرثرة الزبائن فيما بينهم، لكنه كان لحنا مرئيا مشع الإيقاع في حركة عمله الدقيقة المتناسقة، يلتقط بأنامل يمناه من الطبق الأبيض النظيف قطعة من عجينة الطعمية الفستقية، يدورها على راحة يده اليسرى ويسويها قرصا، ينقل القرص إلى راحة يده اليمنى، يلتقط بعض السمسم بأنامل يسراه وينيم عليها القرص ثم يعيد القرص إلى يمناه وقد تطعم بالسمسم، فيلقيه في صخب الزيت الملتهب، ويكرر ما يفعل دون توقف. يفور الزيت فيما غيمات شهية تتصاعد بصحبة صوت القدح. تنجاب وتنجلي الأقراص، تهتز وتتقلب وهو يحركها بالكوبشة، تتحول إلى بنية ذهبية تتشهاها العين ويجري لها الريق. يلتقطها بالكوبشة ويودعها المصفاة، تتخفف من الزيت الزائد، يلتقطها ثانية وينشرها على أطباق ورقية مفروشة بفرح البقدونس زاهي الخضرة وحلقات الطماطم بهيجة الاحمرار. ثم يطفئ نار القلي، ويمضي على إيقاع دندنة خفية في تشكيل وتنسيق ساندوتشاته خلابة المذاق.

* * *

«مدهش»، كررتها معجبا سائلا التأييد وأنا ألتفت إلى صاحبي، لكنه لبث على استغراقه ممعنا في الرجل، وكان الآكلون وقد

أوجدتهم لذاذة الفلافل يتحمسون في إطراء الرجل، فينتشي، ويتكلم دونما لحظة توقف عن عمله، بل تكتسب حركته مزيدا من التناسق والسرعة كأنه ينتقل بلحنه الخفي إلى إيقاع متسارع يضبط به فقرات كلامه هذه المرة.. يقول إنه يشتغل فقط لأنه يحب انبساط الناس بما يقدمه، وأن أولاده لا يكفون عن الإلحاح عليه أن يغلق الدكان ويستريح ويأخذ منهم ما يكفيه، بل أكثر مما يكفيه، لكنه يرفض وسيظل يرفض طالما ظلت في أذرعه عافية، فلن يطعمه حتى أولاده الذين يحبهم ويحبونه. وأشار بسبابته إلى إطار قديم مكسور الزجاج على الحائط أعلى الكنبة به صور أطفال في لقطات مختلفة بالأبيض والأسود. راح يُعرِّفهم منوها أنهم قد كبروا الآن، وصاروا «في مراكز عالية»، «حسين» ـ قبطان بحري، «ماهر» ـ طيار، «هدى» ـ دكتورة، «وفاء»..، ولم يكمل إذ فاجأه صاحبي وفاجأني بسؤال سدَّده إلى الرجل بحدة:

ـ «انت من اسكندرية يا عمَّنا؟».

انتفض الرجل متوقفا عن عمله، ناظرا بعيني طائر مذبوح إلى وجه صاحبي، وبهمس قاطع رغم ارتجاف الصوت وتوتره، نفي تماما أن يكون من الإسكندرية، وأخذ يكرر نفيه في همس، ثم أقفل راجعا إلى طقوس صنعته وإن همد إيقاعه ووهنت حركته.

* * *

امتدت بنا دروب آخر الليل مُبتلة وأقل ابترادا، وامتد صمت صاحبي الذي لازمه منذ غادرنا دكان الفلافل. استنطقته، فانفجر يشتم نفسه لما يمكن أن يكون سببه للرجل بقسوة السؤال، ثم راح يقسم

ويؤكد على أن الرجل ليس إلا صاحب «المطعم البلدي» في «شارع الجمرك القديم» قرب «باب (١)» من أبواب الميناء، بحي «بحري» في الإسكندرية، والذي ذهب قرب الظهيرة في مشوار قصير إلى «سوق المنشية»، وعاد ليجد البيت القديم الذي يشغل مطعمه طابقه الأرضي وتسكن أسرته وأسرة أخيه وأمه وأخته طوابقه الثلاثة الباقية قد انهار، صار كتلة من الأنقاض تدفن كل من كانوا له في الحياة: أمه وأخته وأخوه وأسرته، وزوجته هو وعياله الذين أشار إلى صورهم أطفالا في الإطار القديم بالدكان الصغير الساهر في عمق الليل، والذين ظلوا أطفالا، لم يكبروا أبدا. «أبدا. أبدا. أبدا» ـ ظل يكررها صاحبي في انفعال أليم، ويشتد انفعاله وهو يستعيد المنظر الذي لم يغادر ذاكرته منذ سنين عديدة ولن ينساه، منظر الرجل الذي أقبل مذهولا يحدق في تَلَّة الأنقاض والأشياء تتساقط من يده وخطواته تبطئ وتخور حتى انهار مقعيا في خرس وهدوء عجيبين إلى جوار التلة. ظل خمسة أيام كاملة بلياليها لم يغير وضعه أو يغادر مكانه حتى أخرجوا آخر الجثث من بين الأنقاض وكانت لطفلة في الثالثة هي أصغرِ بناته، بعدها ظل الرجل هائما يهذي ويضيع في شوارع الإسكندرية، حتى اختفى، وشاع أنه ربط حجرا في عنقه وأغرق نفسه في مياه البحر، وها هو ذا يظهر من جديد!

صرت مذهولا بدوري وأنا أصغى إلى صاحبي، وألجمني الصمت. وعندما تكلمت أخيرا رحت أسأل صاحبي، وأكرر السؤال عما إذا كان متأكدا مما حكاه، ومن أن الرجل هو نفسه، فنظر إلي بعتاب وراح يقسم أن الرجل هو نفسه، وأنه يستحيل أن ينساه ليس

فقط من هول المشهد الذي رآه فيه، ولكن لأنه كان يعرفه عن قرب قبل الحادث، فقد كان جارا لبيت أسرته في بحري - حي الجمرك القديم - قرب «باب (١)». ولم أكن في حاجة للمزيد، إذ أيقنت أنا نفسي، وبنوع من الإشراق الداخلي الذي أحسسته يتوهج داخلي، أن الرجل هو نفسه. عندئذ لفنا ونحن نصعد باتجاه النيل صمت آخر الليل، صمتٌ رهيف خال من كل كآبة حتى إنني أحسست بانشراح رحيب، وبالنسائم تدْفأ وتلين وهي تتوالد على صفحة النيل وتأتي لتغسل وجهي وتملأ صدري بارتياح وجدت نفسي فيه أدندن، أدندن ببعض من وتريات شاعرنا الراحل لحَّنها موسيقي عبقري ضرير، وكان صاحبي معي يتجاوب.

دندنت في نسيم آخر الليل. وفي ضحى اليوم التالي بعدما استيقظنا وجدت نفسي وأنا أعد الإفطار البسيط مما تيسر.. أدندن. أغني للنجوم الزاهرة في طاسة البيض المقلي ولرشة الفلفل الأسمر والملح على وجه النجوم أغني. أغني لشرائح الخبز المُقمَّر في تناسقها على حافة الطبق، وأُغنِّي لوردات الطماطم وثلاث زيتونات منسية رصعت بها حمرة الباقة. أغني لانسكاب قليل الحليب في حضن القهوة الساخنة. أغني بخفوت، وأمتلئ يقينا وأنا أغني بأن طعامي شهي وطيب، ويزيدني يقينا أن يثني صاحبي الفنان بصدق وحرارة على صنعة هذا الطبق البسيط البسيط، أول طبق غنيت له، وعلمني أن أغني لما تلاه.

ابتسامة أم كيسنجر الوحيدة

الأمر المؤكد أن وجهها الكهل المحاط بكشة الشعر الأبيض كان يحمل ضحكة واسعة، بلا صوت، عندما ظهر إذ انحلت ربطة الكفن فوق الرأس وتزحزح الجسد خارجا حتى العنق من فوهة الكيس الأبيض المعطر. ويبدو أن ذلك الخروج الضاحك قد سبق مباشرة، أو قبل حين، انفصال غطاء النعش وانزياحه، ثم سقوطه عن ظهر العربة التي كانت المدينة تطاردها وتتابعها.. كل المدينة.

ماتت أم كيسنجر في صباح شتوي هادئ، فتذاكر الناس اسمها القديم «أم الثمانية» إذ تصاعد من البيت المتراكب بعشوائية، إضافة لصراخ النسوة وبكاء الأطفال، جؤار وإجهاش ثمانية رجال عماليق بينهما توءمان، وجميعهم ذوو أجسام وفيرة وعظام طويلة عريضة مثلها. ثمانية رجال كانوا ظاهرة الحي، وربما المدينة كلها، بنوا بيتهم بأياديهم، طوبة على طوبة، و غرفة فوق غرفة، دون تخطيط ولا توقف، كأنهم أولاد صغار منهمكون في لعبة تشغفهم. كان بيتا كبيرا، ركيك الهيئة نعم، لكنه شديد المتانة، مبنى من الطوب الأحمر والخرسانة، وله فناء فسيح به عربتا كارو وعدة دراجات هوائية وأخرى نارية، وسيارة خليط من الجيب والنصف نقل يدوية الصنع تامة التكوين يلمع طلاؤها الأحمر الميتاليك الزاهي وتبرق نواكلها. وفي ظهر الفناء كانت هناك حظيرة بها حمار أبيض فتي وحصان عجوز بني اللون. كل وسائل الركوب المعروفة في شوارع هذه المدينة كانت منها عينات في

هذا البيت، لهذا كان أهل الحي يطلقون على البيت وسكانه اسم «سلاح المركبات»!

جذور سلاح المركبات هذا كانت تعود إلى عربة كارو وحصان امتلكهما الأب الذي كان عربجيا أصيلا بالوراثة. ثم جاء أولاده من بعده لتجتاحهم حمى التحديث، فتبنى اثنان منهم الدراجات الهوائية وصارا عجلاتيه، بينما اتجه ثلاثة إلى الدراجات النارية يؤجرونها ويصلحونها، وتولَّع الأخوان التوءمان بميكانيكا السيارات التي برعا فيها إلى حد تركيب سيارات كاملة من قطع الحديد الخردة والمحركات القديمة. سيارات، صحيح أنها مسوخ «تشبه فرنكشتاين»، كما وصفها همسا أحد أبناء الحي المتأنقين المواظبين على مشاهدة الأفلام الإفرنجية، لكنها سيارات، ومن لا شيء. أما الابن الأصغر، وهو لا يقل عن إخوته الأكبر في الضخامة، فقد أصابه داء الحنين إلى مهنة أبيه وأجداده فصار عربجيا، لكن على أول درجات المهنة، إذ اكتفي بأن يبدأ بحمار وعربة كارو صغيرة، خصوصا وأن الحصان البني العجوز الذي تركه له والده عند تقاعده كان أضعف من مواجهة أعباء العصر ومجاراة حماسة الشباب. هذا الابن هو الذي حمل اسم: «كيسنجر» ومنح أمه آخر ألقابها: «أم كيسنجر»!

قبل أن يحل عليه الاسم الجديد كان اسمه «جمعة». وكان شرانيا وطريفا وهو يجلس بجرمه الضخم العفي على مقدم العربة الصغيرة التي يشدها الحمار الأبيض الرمادي. وكثيرا ما كان جمعة رأس الحربة في المجابهات التي يخوضها الأشقاء الثمانية،

مجتمعين، مع فتوات الأحياء المجـاورة، مجتمعين ايضا.. تحدث المناوشة مع جمعة، فيرسل في طلب أشقائه، ويخرج سلاح المركبات بكامل عدته وعتاده.. على الدراجات والموتوسيكلات وفي سيارة أو سيارتين فرانكشتاين، إن وُجِدتا، وتعلو قضبان الحديد والعصي الغليظة وتلمع السيوف والسنج وتصلصل الجنازير والسلاسل الفولاذية، يكون ضرب ودم لكنه لا يصل أبداً إلى حد القتل، فالقتل خط أحمر لا يعبره المتعاركون أبدا. فبطريقة ما، لا شعورية، غامضة، تتوقف ضرباتهم الجنونية عند حد أقصى، لا مرئي، ومحسوب بدقة عبقرية من اللاوعي الجمعي الشعبي، فلا تقع جريمة قتل، ولم تقع جريمة قتل واحدة برغم كثرة المعارك واشتداد أوارها. معارك مشهودة، صارت التاريخ المروي لحارات المدينة وشوارعها وأحيائها الشعبية. لكن وهج هذا التاريخ خبا بتسارع عندما وقع في الهوى «جمعة».. اشتعلت في الحارة قصة حب نارية تخللتها تسللات عشق تحت جنح الظلام، وأشواط ردح نهارية بين أم البنت وأم الثمانية. ثم وقعت معركة واسعة بين سلاح المركبات كله، حتى الأم والأب، مع أهل البنت الذين تم استدعاؤهم على وجه السرعة، وحتى أبعد الأقارب، من الأحياء المجاورة، وبكامل أسلحتهم غير النارية. وبعد الموقعة كانت هناك وساطة أولاد الحلال، ولقاء، فاتفاق.. وتزوج جمعة.

انقلب حال جمعة، صار عاشقا في النور، يخرج على ظهر عربته الكارو نظيفا مستحما ممشطا شعره، وفي ثياب الفسحة دائما، بل إن حماره والعربة نالهما كثير من العناية والتزويق.. أشاير ملونة

وخلاخيل وأجراس للحمار، وللعربة دهان جديد أخضر زرعي ورسوم ملونة لأزهار وفواكه وأغصان تغطي حتى العجلات، بينما على الحواف والجوانب تواصلت المأثورات: «يا ناس يا شر كفاية قر»، «ما تبصليش بعين ردية كفاية اللى اتصرف عليه»، «القلب يعشق كل جميل»، «سكة السلامة يا عسل». أما أبرز تبدلات جمعة، فكانت شوقه الدائم للعودة إلى البيت.. يخرج ليؤدي عملا، أو لا يؤدي، لكنه أبدا لا يغيب ساعة حتى يعود. ويلاحظ ذهابه وإيابه أهل الشارع إذ تزفه خلاخيل وأجراس حماره وعربته المزوقة. وفي مرة من مرات الذهاب والإياب المتلاحقة نظر إليه شيخ ضحوك من أهل الحارة، كان مزواجا بلحية وكرش عظيمين وتهكمات لا تنقطع، غمز بعينه مومئا إلى جمعة، وأطلقها: «هاء هاء هاء.. كيسنجر»!

كان كيسنجر اسما ذائعا آنذاك وهو يذهب ويعود إلى المنطقة في رحلاته المكوكية المعروفة تلك. والتقط أولاد الشارع الاسم فتحول جمعة إلى: «جمعة كيسنجر»، ثم اختُزل إلى «كيسنجر» فقط. وقد أحنقه الاسم في البداية، وكاد يؤدي إلى أكثر من معركة كبيرة من معارك سلاح المركبات الغابرة، لكن جمعة عندما عرف أن «كيسنجر» اسم لوزير كبير، وأمريكاني أيضا، قبل الاسم، وبه زها، بل مرر في تسامح وإغضاء لين أن ينتقل الاسم إلى أمه لتصير: «أم كيسنجر»!

ماتت أم كيسنجر فجأة بعد وقت قصير من مرض خاطف، وقيل إنها تسممت من جرح أصابها عندما كانت تصلح دراجة من دراجات ابنيها «العجلاتية»، إذ كانا مزحومين بالعمل فأرادت أن تساعدهما وحدث ما حدث.. دخلت يدها اليسرى سهوا بين أسنان

طارة البدال والجنزير وهي تدير بيمناها القوية بدال العجلة المقلوبة في وضع الاختبار، فانطبعت راحتها الكبيرة بسلسلة من الحُفر العميقة التي خلفتها عشرة أسنان معدنية مسنونة غاصت عميقا في اللحم الحي. لم تنزف إلا قليلاً، وقيل إن الضمادة التي صنعتها من خرقة بالية التقطتها من الأرض قرب حظيرة الحمار والحصان كانت سبب مرضها. اندمل الجرح بسرعة خارقة أنجزها الجسد المتين، لكن الميكروب الآتي من أثر البهيمتين ظل مختبئا تحت الندوب، وسرى في دمها صاعدا على أعصابها حتى قمة الرأس. سخنت قليلاً، وهلوست لحظات، ثم انتفضت متشنجة، وماتت. وصعق الموت أبناءها الذين لم يعرف الموت ولا المرض بيتهم من قبل. انهاروا على جثمانها المديد في بكاء رجالي حارق، بكاء ثمانية عماليق هز البيت العشوائي الكبير المتين، وهز الشارع، والحي كله، ثم هدأ بكاؤهم عندما راحوا يفكرون فيما يعقب الموت.

اكتشف الثمانية من سلاح المركبات أن أمهم، التي ورثوا العملقة عنها، يصعب حملها في «خشبة» النعوش المعتادة إلى المقابر البعيدة خارج المدينة. وكانت فكرة جلب سيارة إسعاف تقتضي منهم الدخول في إجراءات معقدة لم يألفوها. أما سيارات نقل الموتى السوداء فكانت فكرة مرعبة لثمانية رجال ضخام ذوي فطرة بسيطة. وفي هذا اللغط لمعت الفكرة البديعة في رأس التوءمين الميكانيكيين: أن يحملا نعش الأم في صندوق العربة الخليط من الجيب ونصف النقل التي انتهيا من تكوينها وطلائها للتو. سيارة جديدة تلمع نواكلها جديرة بنعش أمهما العزيزة، وتصنع ما يضاهي

جنازات العظماء إذا تحركت ببطء والمشيعون يمشون وراءها منكسي الرءوس في حزن وسكون، بينما الموتوسيكلات الأربعة الموجودة في البيت تحف بجانبي الجنازة!

نالت الفكرة تأييد سلاح المركبات كله، وتم استبعاد الموتوسيكلات نظرا للضجة غير الجليلة التي تصدر عن محركاتها، ورائحة دخان الديزل الكريهة التي كانت تنفثها في الهواء.

ركبت أم كيسنجر أولا عندما استقر ثلثا نعشها الطويل في صندوق السيارة الجيب نصف نقل، وظل الثلث الباقي بارزا من مؤخر السيارة. ثم تهيأ الابنان التوءمان للركوب بعد أن تأكدا من ثبات النعش إذ كان الثلث البارز والمعلق في الهواء هو الثلث الأخف المحتوي على الرجلين. كان الأخـوان الميكانيكيان يتفاهمان كأنما بالتخاطر ودون تبادل كلمة واحدة. صعدا إلى السيارة المكشوفة في صمت، كل من جهة. استقر أحدهما وراء عجلة القيادة والآخر إلى جواره، وسار موكب الجنازة منسابا ينتظم فيه أهل الشارع بهدوء يليق بحزن المناسبة، الرجال أولا والنساء وراءه ثم العيال يرِفُّون هنا وهناك وعلى الجانبين. كان موكبا طريفا بطلعته الميكانيكية وجسمه وذيله المكون من أبناء الحارة ونسائها وعيالها في أسمالهم المتواضعة. ومع ذلك كانت حركة المرور تتوقف للموكب، و تنفسح الشوارع، ويصمت الناس وقوفا على الأرصفة فيما يواصل موكب الجنازة سيره مُبطئا، بوقار.

بدت الشوارع في ضوء الضحى الساطع واسعة كما لم يعتدها الأخوان أبدا. بدت طازجة وجميلة كأنهما لم يرياها من

قبل. وفي شارع الكورنيش بدا العالم أجمل ما يكون إذ تتجاور البيوت البيضاء على امتداد قوس النهر. لاح النيل الرقراق بضفافه الخضر نعيما للبصر. وتذكر الابن خلف عجلة القيادة أمه النائمة في صمت وراءه، فأجهش.. أخذ يرتج في بكائه حتى إن السيارة المبطئة كانت ترتج معه، ومع ارتجاجه انفجر توءمه يبكي كأنهما تخاطرا بسر هذا البكاء. لقد اكتشفا معا أن أمهما ربما لم يُتَح لها أن تتمشى في شارع الكورنيش منذ عشرين أو ثلاثين سنة، لم تر النيل ولا الفلايك السابحة على صفحته ولا طيور النهر المحلقة فوق الماء ولا الأشجار الوارفة والنخيل العالي على ضفتيه. بل إنها منذ عشرين أو ثلاثين سنة توشك أن تكون ما غادرت الحارة أبدا، بل لم تغادر عتبة بيتها ذاته. كيف حدث هذا؟! كيف تصور الثمانية أنهم إذ يُحضرون إليها كل احتياجات البيت يخدمونها. لم يدركوا أبدا أنهم يحرمونها من رؤية الدنيا الواسعة خارج الحارة على مقربة خطوات. كانوا يسجنونها، وهي تؤدي في سجنها عملاً بحجم الأشغال الشاقة لأبنائها المولعين بالدراجات، والموتوسيكلات، والسيارات، والعربات، والخيول، والحمير. «احنا حمير» قالها التوءم خلف عجلة القيادة وهو ينشج منتفضا. وجاوبه توءمه إلى جواره كأنه رجع الصدى الناشج المنتفض: «أيوه حمير».

كانت الجنازة تقطع شارع الكورنيش لتعبر الجسر إلى الضفة الأخرى حيث توجد المقابر. وبدا اقتراب المقابر قابضًا يعصر قلبي الأخوين بقبضة خرساء بليدة. كيف يدفنانها الآن وهي مدفونة في الحياة منذ عشرين أو ثلاثين سنة؟ أين كانوا وهم رجال طوال

وعراض؟ طوال وعراض وبلا مخ ولا روح. أمخاخهم ظلت محشوة بالدراجات والعربات والسيارات والخيول والحمير. وأرواحهم ظلت «تركبها المركبات». «حمير»، «حمير» عاد التوءمان يشتمان نفسيهما. كز الجالس وراء عجلة القيادة على أسنانه وهو يقبض عنيفا على المقود كأنه يريد انتزاعه، وضرب شقيقه على حافة الباب إلى جواره كأنه يريد تحطيمه. وفي لحظة واحدة خاطفة نظر كل منهما في عين الآخر، واتخذا القرار في صمت..

انطلقت السيارة حاملة النعش بسرعة خاطفة، كأنها ستطير، فعفَّرت المشيعين وراءها، وخلفتهم في اضطراب وحيرة. بلغت نهاية الجسر ودارت لتعود في الاتجاه المضاد، على الجسر مرة أخرى. كان المشيعون قد انتشروا في اضطرابهم، سادين الطريق، وأخذوا يشيرون إلى السيارة لعلها تبطئ ليفهموا ماذا يحدث، لكن السيارة كانت منطلقة كالسهم، فأخذوا يفرون بعيدا عن طريقها مذعورين، وهي لا تلوي، مندفعة في مسار حدده التوءمان من دون أن يتبادلا كلمة.. سيعودان بها إلى شارع الكورنيش لتمر به من أوله إلى آخره، وشارع المحافظة، وشارع الإستاد، وطريق المشاتل، والشارع التجاري، والضاحية الجديدة. سيجعلانها قبل دفنها ترى الدنيا الجميلة التي حُرمت من رؤيتها وهي حية.

راحت السيارة تمرق في الشوارع مثل سهم طائر.. لا تعبأ بإشارات ولا اتجاهات، ولا تُفرِّق بين طريق للمشاة وآخر للسيارات، ليس فقط لأن التوءمين لم يكونا يعرفان ذلك، فهما يعرفان السيارات ولا يعرفان الطريق، لكن لأنهما كانا يبكيان وهما ينطلقان، يريان روعة

الشوارع فيبكيان حظ أمهما القليل، ويريان الأحياء في الطرقات يمشون فيبكيان موت أمهما مزيدا.

بدا الأمر من خارج سيارة الشقيقين محض جنون.. سيارة مجنونة تختطف نعشا وتسرع به فتثير الاضطراب في الشوارع! اشتد عواء سيارات شرطة النجدة، وجؤار الدراجات النارية لشرطة المرور، واشتعلت المطاردة.

لم يدرك الأخوان ما هو مطلوب منهما عندما أسرعت خلفهما سيارات الشرطة العاوية، ولم يدركا إشارات راكبي موتوسيكلات شرطة المرور عندما اندفعوا بمحاذاة سيارتهما. لم يسمعا في ضوضاء كل هذه المركبات صيحات عساكر المرور، ولا نداء الشرطة في مكبرات الصوت التي تلاحقهما. فقط أحسا بالفزع، وفزِعا يفلتان بأمهما، فطار صواب الشوارع أكثر. جُنّت سيارة الأخوين التي تحمل نعش أمهما، وجُنّت سيارات النجدة التي تكاثرت، وجُنّت دراجات المرور النارية، والتصق الناس ذعرا بالحيطان، وأطلوا مُستغربين مُتسائلين، من الشرفات، والنوافذ، ومداخل المحال والحوانيت والعمارات.

في الدوران الضيق لميدان محطة القطارات الصغير كادت سيارة التوءمين تنقلب وهي تقطع قوس الطريق عائدة على عجلتين، فطار غطاء النعش. وعندما انهبدت السيارة عائدة إلى وضعها الطبيعي، انهبدت الأم في كفنها، وكانت الارتجاجات قد حلحلت الرباط فوق رأسها، فقفز رأسها مُطلًا من فوهة الكفن مع ارتطامة مفاجئة للسيارة بعمود إنارة لم يستطع الأخوان تفاديه. توقفت السيارة التي

أسرعت تطوقها عشرات سيارات وموتوسيكلات الشرطة، وهبط التوءمان ملتفتين بكل جوارحهما لنعش الأم في صندوق الجيب نصف نقل، ورأياها تضحك.. ضحكتها هذه التي بلا صوت، والتي أذهلتهما حتى إنهما استسلما للشرطة من دون ذرة خوف، رافعين أيديهما وهما يهمسان معًا بارتياح: «الحمد لله يا رب.. الحمد لله.. ودّعت فرحانة».

لم يتنازلا أبدا عن ذلك الإحساس بالرضا وأداء الواجب الأخير تجاه أمهما، حتى إنه عندما وصل إلى سمع الأخوين ما ردده طالب طب صغير من أبناء الحي، به شُقرة، شارحا للبعض أن ضحكة أم كيسنجر الأخيرة هذه لم تكن أبدا ضحكة، بل مجرد تقلص ميكانيكي لعضلات الفكين يُسمَّى «تريزمس» يسببه ميكروب التيتانوس الموجود في روث الحصان أو الحمار وتلوثت به مزقة القماش التي التقطتها الأم من الأرض وضمدت بها الجرح! اشتعل الأخوان جنونا وأوشكا على الفتك بطالب الطب، لولا تدخل الناس، وتراجعه العلني عن سابق أقواله، إذ راح وهو مُعلَّق في الهواء بين يدي العملاقين، مخنوقا بطوق قميصه، ممتقع البياض ورموشه الشقراء تبربش، يقر ويؤكد إقراره: «أنا غلطان.. غلطان.. غلطان جدًّا»، فأفلتاه مُشيعين إياه ببصقة صوتية مزدوجة وهما يرددان معا في ازدراء: «روح.. إخّيه عليك ضكتور حمار.. قال ضحكة مكانيكية قال».

مقتل ساحر الزجاج

«لعله يهذي بلغتكم.. بالعربية» بهذه الجملة اختتم مرافقي البولندي حديثه وهو يدعوني لمشاهدة من يدعونه «مجنون الغيوم» الذي يتجول حول تلة «وستر بلات» المطلة على بحر البلطيق شمالي جدانسك. وهو كما فهت متشرد ستيني مجذوب تحوم حوله حكايات غريبة، ما أن حكى لي مرافقي طرفا منها حتى ارتد بي الزمن أكثرِ من أربعين سنة إلى الوراء، وفكرت في أن المصادفة ربما اختارت لي أن أغلق دائرة الحكاية التي بدأ قوسها ينمو أمامي عندما كنت لا أتجاوز السادسة، ولم أكن أتصور أن هذا القوس الذي توقف امتداده منعقدا على نقطة من أسئلة كثيرة حيرى، سينحل انعقادها لينطلق القوس في اندفاعة سريعة كبيرة واحدة، تغلق دائرة تلك الحكاية في هذه البقعه البعيدة عن مصر، في أقصى الشمال البولندي المطوق بخليج جدانسك، والمفتوح على بحر البلطيق.

* * *

كان عالم طفولتي الذي بدأت فيه تلك الحكاية موزعا بين عدة دوائر متداخلة محورها بيتنا الذي كان في أقصى جنوب المدينة، أمامه أرض شاسعة خالية، وخلفه امتداد حقول قرية قريبة، صارت فيما بعد من الضواحي. كنا نقيم في الطابق الثاني الذي يعلو ورشة أبي، لهذا كان وجودي في البيت لا ينفصل عن الوجود في الورشة، وفي الورشة كأنني في البيت، حيث لا يفصل بين المكانين غير بضع درجات من سلم موزايكو أشهب، أصعدها متواثبا وأهبطها قفزا،

وكثيرا ما أكون في المكانين معا عندما أطل من الشرفة التي كانت بطول واجهة البيت كلها، ومن إطلالتها كنت أرى امتداد أعمال الورشة في السيارات المتناثرة في الأرض الفضاء أمام البيت، بل أقف على ما يجري داخل الورشة عبر ما يصعد إليَّ من أصوات في قلبها وأنا أشب على سور هذه الشرفة وأطل.

كنت أسمع الحكايات الغريبة عن ذلك الرجل دون أن أراه، ولم أصدق أنه هو عندما أقبل إلى ورشتنا في سيارة «بليموث» بلون «أزرق بروسيا» مفضض، نواكلها براقة فخمة، وسطوح رفارفها «البومبيه» وسقفها وغطاء شنطتها تشبه كلها خدودا عملاقة منفوخة. ولأنني كنت أحب لون الأزرق بروسيا خصوصا عندما يكون مفعما بدقائق ذرات المعدن الألاقة في دهانات الميتاليك المفضضة أو المُذهَّبة، فإنني لم أهتم في البداية بالقادم في هذه السيارة، لأنني كنت أتأهب بخيالي للغوص في رحاب هذا اللون الأزرق الغامق ذي العمق العسلي، والذي كان يوحي لي بسماء ليل سارح تتألق فيه حشود نجوم مترامية الأبعاد، أو سطح بحيرة بنفسجية تسبح في أعماقها أسماك فضية مضيئة منمنمة. كان الأزرق بروسيا المفضض هو أحب الألوان عندي، لهذا انشغلت بتأمل السيارة القادمة ولم أحفل بالقادم داخلها إلا بعدما سمعت الصنايعية والأسطوات يتهامسون بأصوات يجهدون في أن تكون خافتة على غير عادتهم في التكلم بزعيق: «هو». «فعلا هو». وأدركت من رهبة تهامسهم وتوتر ملامحهم التي يختلط فيها الإجلال بالتوجُّس، أنه «هو». هو من كنت أسمع أحاديث الكبار المحيرة عن عجائبه التي تحير المدينة كلها، والتي كانت غامضة المعاني لديَّ، وتحيرني كثيرا.

وقد عايشت في ذلك اليوم وقوع عجيبتين من عجائبه في ورشتنا، كانت إحداها تخصني دون سِواي.

نزل الرجل نحيفا جميلا أنيقا من السيارة ذات الزرقة العسلية العميقة، فأطاح بالصورة المهولة التي كوَّنها خيالي عنه في ظلال ما كان يتناهى إلى سمعي من أخباره. كان شابا يبدو فتى وإن عرفت فيما بعد أنه كان في الخامسة والعشرين. وكانت سيارته نظيفة جدا من الداخل والخارج حتى إنني استغربت أن يأتي بها إلى الورشة التي تقوم بأعمال التجديد والترميم، بينما سيارته لم تكن في حاجة إلى ترميم أو تجديد. كان يريد فقط «ترويقة شمع» تجعلها أكثر بريقا ونظافة. سلَّم على أبي بطريقة طمأنت قلبي الصغير، فقد صافحه محتضنا يمناه بيديه كلتيهما في محبة ظاهرة، ثم ربَّت بود على كتفه. وعندما استدار مبتسما ليسلم على أسطوات وصنايعية الورشة، التفت بغتة في تجهم، وواجه الصنايعي الذي كان آتيا لتوه من مشوار للورشة في قلب المدينة. حدَّق فيه بنظرة ثابتة طويلة من عينيه الخضراوين الجميلتين، ثم رشقه بسؤال كأنه سهم ضوئي ثاقب: «وخنصرت كام ربع يا حضرة؟»، وكان مذهلا أن نرى الصنايعي ضخم الجثة وعظيم الشارب والذي كان معروفا في الورشة بشراسته وخوف الجميع منه، يتداعى مُنهارا منكمشا، فيأخذه ذلك الشاب من يده وهو مُطأطئ، ويأخذ أبي مُحيطا كتفيه بذراعه في ود، ويذهب بهما إلى ركن الورشة البعيد الخالي.

مكثوا بعض الوقت يتحادثون من دون أن يبلغ مسامعنا حديثهم، والذي انتهى بخروج الضخم ذي الشارب الكبير ملتما على نفسه، مغسول الوجه من أثر دموع كثيرة لا بد أنه ذرفها ومسحها قبل أن

يجيء. وعرفت من أبي الذي كان مُتعجبا يحكي لأمي في المساء، كيف أن ذلك الصنايعي أخذ يبكي بين الضيف وأبي، مرتجفا كطفل ندمان، ومُعترفا باعتياده شراء ثلاثة أرباع الكيلو من كل كيلو من الدهانات والمعاجين وكمباونات التلميع والتنر التي يرسله أبي لشرائها من قلب المدينة، ويضع الفارق في جيبه. ونال اعترافه الباكي شهادة غفران لجريمته، من الشاب الذي أبدى استعداده لتسديد كل ما استولى عليه بالخداع، ومن أبي الذي كان متسامح الطبع إلى درجة تنازله عن «حقنا» كما كانت أمي تعاتبه في أحوال كثيرة، ولم يكن ممن يقبلون «العوض» الذي لم أفهم حينها ماذا يعني، إضافة لمحبته الواضحة لذلك الشاب العجيب. ولم يكن هذا هو التجلي الوحيد في يوم «السحر» ذاك..

بعد نصف ساعة من واقعة كشف سرقات من حمل فيما بعد وحتى آخر حياته لقب «شنبو الرُّبع»، حدث لي ما لا يمكن تصديقه عقلا وإن كنت رأيته تجسيدا. فبينما كان هذا الشاب يتجول حولنا ونحن نعمل في «تلميع» سيارته بالقطن الناعم والشمع الخفيف، وكنا حول هذه السيارة اثنين من الصنايعية الكبار وثلاثة صبية، توقف عندي محدقا في عيني بعينين لم أر في حياتي أصفي منهما رقرقة وحنوا، ووجه لي بلطف شديد سؤالا مازحا ألجمني: «واصطدت كام سمكة من البحيرة يا صياد؟». متحيرا لم أنطق لأنني بالفعل كنت كلما أكملت تلميع جزء من الرفرف الذي تركوني ألمعه أتوقف متخيلا أن هذه الزرقة العسلية مياه بحر ودقائق الألومينيوم الألاقة أسماكا فضية تسبح في أعماقها. وقفت مشدوها أحدق فيه

من دون أن أنطق. فمد يده التي أتذكرها بيضاء تشف عن عروق خفيفة الاخضرار لا الزرقة، وضعها على رأسي ومسح على شعري بمحبة، فصار جسمه أمام عيني الذاهلتين شفافا كأنه من زجاج بالغ الصفاء ضارب إلى زرقة خفيفة، ورأيت وراءه وعبر شفافية جسده: ماكينة ضغط الهواء وبجوارها دولاب الإيديال المعدني الكبير وبه رفوف الصاج عليها الكمامات ومسدسات الرش وعلب الدهان والمعجون وعلبة الفُرَش وأقلام خطوط المستريك وآلتا التلميع والصنفرة الكهربيتان!

رأيت كل ذلك، رؤيةً واضحة مذهلة، لم أبح بسرها لأحد قبل كتابتي هذه السطور، وإن ظلت عالقة بذاكرتي، وحاضرة في حيرتي على امتداد أربعين عاما، من دون أن يقترن حضورها الحائر بخوف أو رهبة، وهذا عجيب في حد ذاته.

* * *

بعدما كبرت ونما اهتمامي بالطب النفسي قبل أن أتخصص فيه، ظللت أهجس بأنني ربما أكون يومها قد مررت بلحظة هلوسة بصرية، ومن ثم أكون معرضا للجنون. لكن عملي كطبيب نفسي جعلني أعبر هذا الخوف لتفريقي بين ما مررت به وبين الهلاوس المرضية. ثم إنني من خلال هذا العمل الذي كنت أؤديه كهاو شغوف، بت أوقن أن ما يسمونه «الجنون» قائم داخل كل نفس بشرية، والمهم أن يكون المرء رافضا للاستسلام والسقوط في بئره المظلمة التي لا قاع لها، فيتحصن وينجو. لكن تفسير ما مررت به في ذلك اليوم أمام من أسميته بيني وبين نفسي «ساحر الزجاج»،

ظل يحيرني. وظل يشغلني مصير ذلك الإنسان الجميل الذي عرفت فيما بعد باختفائه، اختفاء غامضا، يعرف بأمره كل الناس، ويتحدثون فيه همسا، وإن لم يحلوا عقدة لغزه ومآله. وكان هذا يدعوني دائما إلى استعادة قوس الحكاية من نقطة الانطلاق...

* * *

في العمر الذي تُجسِّد فيه مخيلة الطفل كل ما لا يستطيع فهمه، رسخ في ذهني أن «ساحر الزجاج» هو ساحر حقا، يستطيع في لحظة أن يُحوِّل نفسه إلى كائن شفاف من زجاج حي، وما أن يواجه أي إنسان حتى يحوله إلى مخلوق من زجاج حي مثله. يشف جلده الزجاجي عن كل ما بداخله من عجيب جميل، أو مقزز قبيح، وتنكشف كل أسراره، لهذا كان يرهَبه الناس، بعضهم يريد حبسه لفضح أسرارهم ومخازيهم، وبعضهم يرفض أي إيذاء يقع عليه، كونه صاحب كرامات، مثله مثل «أولياء الله الصالحين» الذين ماتوا فتم تكريمهم بالدفن في مقابر من رخام أبيض مغطى بديباج أخضر داخل أضرحة بنوافذ من مشبكات الفضة الخالصة، تضيئها الشمس نهارا وتتألق داخلها مصابيح النيون ليلا، فلا يغيب عن قلبها النور، كضريح «سيدي عبد القادر» القريب من بيتنا والورشة. أما عندي فظل «ساحر الزجاج» لبضع سنوات من عمر الطفولة، احتمالا لملاك.

* * *

مضت سنوات وسنوات، وانسحب بساط المخيلة الطفلية السحري من تحت الأقدام التي كبرت. تجولتُ في الأرض كفاية، فراح المُتجسِّد يتجرد، ويُفضي إلى الشكل الأكثر ملموسية من الإدراك الواقعي الذي

لا سحر فيه. وعرفت أن من أسميته «ساحر الزجاج» بعد يوم الورشة ذاك، كان الابن الوحيد لأبوين من عائلة «البكري» العريقة المعروفة. كانا شديدي الثراء، بنظافة، وكانا وافري عمل الخير بلا ادعاء. لديهما أراضٍ زراعية شاسعة في الريف القريب من المدينة ورثاها عن الآباء والأجداد، وحافظا عليها كبساتين لا تزرع إلا أشجار الفواكه والأزهار العطرية، وبخاصة الياسمين. وأضافا إلى هذه البساتين مصنعين صغيرين لكنهما حديثين فائقي التطور والقدرة، يُنتجان نكتار الفواكه المَركَّز وعجينة الياسمين النفيسة، يُصدِّران معظم إنتاجهما إلى أوربا وأمريكا بعد تغطية الطلب المحلي لمعامل العطور المتواضعة ومصانع العصير الصغيرة، ويجنيان أرباحا طائلة، خصوصا بالعملة الصعبة. لهذا لم تكن الدولة مفرطة المركزية تتحرش بهما، لأنهما من ناحية كانا أمينين شديدي الدقة في دفع ضرائبهما، ومن ناحية أخرى كانا أحد مصادر النقد الأجنبي لدولة مفرطة المركزية شبه مُحاصَرة حينها. أما على المستوى الشعبي، فكانا من المليونيرات ـ بحسابات تلك الأيام ـ وإن من طراز إنساني فريد في عمل الخير وتشغيل ورعاية أناس المنطقة المحيطة بمزارعهم ومصانعهم وبيوتهم، بل كانت أعمالهما الخيرية من مستشفيات ودور رعاية أيتام وعجزة تمتد حتى أقاصي البلاد. كانا مُحترمَين رسميا، ومبجَّلَين شعبيا. وقد تناسج هذا في قصة ابنهما الشاب الذي تجلت أعاجيبه على مشارف فترة الشباب، واختفي من دون أن يغادرها.

* * *

مما تقصيته فيما بعد وقد ظل شاغلي، عرفت أن تاريخ ظاهرة من أسميته ساحر الزجاج، لم تبدأ إلا بعد تجاوزه مرحلة المراهقة.

صار شابا يافعا فأخذت تتبدَّى عليه تلك الأعراض العجيبة، فهو ينظر بعينين ثابتتي التحديق إلى بعض الناس، وما أن تعبر نظراته أحداق من يواجههم حتى ترتد مفصحة عن مكنونات وخبايا ما وراء الأحداق من أسرار، وعلى الفور يفضح اللسان ما عثرت عليه البصيرة.. الشهوات الخبيئة في النفوس، أو النذالات، رقة القلب، أو قسوة الروح، الخير، الشر، الجرائم، المكارم، الكذب..الكذب على وجه الخصوص كان أكثر ما يفضحه ذلك المخلوق الظاهرة. ولأن الكذب الذي يشبه الحقيقة هو الذي كان سائدا، كما في كثير من أحوالنا اليوم، فقد عبرت اختراقات الشاب الثاقبة أسوارا عالية وسميكة. شعارات كُبرى قرأ زيفها في عيون مُردِّديها. مشاعر مبهجة كشف ما يختبئ في قلبها من سواد. ورقرقات لأرواح طيبة توقف عندها وترنم، متمايلا في نشوة صافية، ومربتا على أكتاف وظهور أصحابها بلمسٍ عطوف. لكن هذه الأخيرة كانت وقفات شديدة الندرة لم تكفِ لمنحه الرضا والفرح، بقدر ما كانت تؤجج غضب الآخرين المفضوحة ظُلمات نفوسهم بإضاءاته، فتضطرب في الأجواء أطياف نوايا لقتله، أو - على الأقل - إخفائه دون قتل.

* * *

ما أعز صورة الرجل الذي يشف ويشف الناس تحت شعاع بصيرته، صورة غدت طيفا رقيقا بعيدا من أطياف مملكة الطفولة التي نأت تجسداتها وتلاوينها الزاهية. طيف أخذت تتكاثف حوله أثقال السنين، والتي انتهت بخشونة أسئلة ممضة، عن احتمال اختزال هذا الطيف إنساني السمت في بؤرة من لحم يتفسخ،

تفسخ الأمخاخ التي يضربها الجنون. اثنا عشر عاما اشتغلت فيها طبيبا للأمراض العقلية لم تغادر ذهني خلالها أحجية ذلك الذي تركته على مبعدة عشرات السنين شابا يستحيل الناس تحت نظراته إلى زجاج حي يبوح بكل أسرار دواخله. وكان يوجعني أن أعثر على ملامح منه بين أسوار المصحات الكبيرة التي عملت بها، مُبعثَرة تتناثر من أفواه هؤلاء الهاذين الهائمين في دنياهم، وإن بدوا متحركين في دنيانا، هؤلاء الذين أسقط «الجنون» عنهم كوابح البوح وأغلال المُكاشفة، الذين ما أن تنفتح أحداقهم على أحداق الآخرين، حتى يخترقوا حجبهم، ويتدفق تيار أذهانهم بغير كابح، كاشفين بما تلهج به هذياناتهم أو تنثره أفكارهم الطائرة مِمَّا عثروا عليه من خبايا في نفوس مواجِهِيهم. وبرغم كل تلك الشذرات من التشابهات التي كنت أعثر عليها بين «المجانين» ظل ساحر زجاج طفولتي يقاوم داخلي أن يصطف مع المجانين، أن تهوي روحه في مستنقع عقول فسختها الشِدةّ والأسىَ والأعطاب والكروب. وعندما عثرتُ في أثناء دراستي وعملي على المصطلح الذي أربكني وأخافني العثور عليه بعد انقراضه، وحام بملابساته حول صورة ساحر زجاج طفولتي، ذلك المصطلح العنيف «ضلال الزجاج»، تضاعفت مقاومتي لاستسهال تفسير الظاهرة باحتمال «الجنون»، جنونه وجنوني في المقابل؟!

* * *

كان «ضلال الزجاج» Glass delusion مصطلحا راج في القرن ١٩، يشير إلى اعتقاد خاطئ عند أناس يتوهمون أن أجسامهم أو

أجزاء منها مصنوعة من زجاج. وكان هذا التوهم الغريب يشكل غرابة سلوكهم خشية أن يتكسَّر هذا الزجاج داخلهم ويمزقهم بشظاياه. أطباء النفس في ذلك الزمان سجلوا حالات منه شملت طرفين يبدوان متباعدين أشد التباعد على المستوى الاجتماعي، ففي طرف منه قبعت حالات لمسنين فقراء في ملاجئ العجزة بباريس ولندن، وفي الطرف النقيض دوَّت حالات ذائعة الشهرة، إحداها لملك فرنسا شارل السادس الذي حكم في الفترة من ١٦ سبتمبر ١٣٨٠ حتى وفاته في ٢١ أكتوبر ١٤٢٢، وقد تُوِّج ملكا وهو طفل في الثانية عشرة، وظل عمه «فيليب الجسور» وصيا عليه حتى سن الرشد. وقد لُقِّب في سني حكمه الأربع الأولى المتميزة «شارل الطيب جدا»، لكنه ما أن تمكن من القبض على صولجان الحكم وأمسك بعصا التحكم المطلق في البلاد والعباد بعد هذه السنين الأربع، حتى أظهر طغيانا جامحا، وتهورا في العبث والتنكيل بخصومه لأوهى الأسباب. وساءت بموازاة ذلك أحوال البلاد والعباد، فانقلب على الألسنة لقبه إلى «شارل المجنون». وكان أظهر علامات جنونه ضلال اعتقاده بأن جسمه من زجاج، فكان يرتدي ثيابا مدرعة من داخلها بقضبان فولاذية رفيعة، ولا يسمح لأحد بلمسه حتى لا ينكسر زجاجه. وتفاقم جنونه فصار يعتبر زوجته امرأة غريبة عنه. وكان يرفض الاستحمام لشهور عديدة حتى إنه لم يكن يستحم إلا بتكبيل اثني عشر رجلا له وتحميمه عنوة. وفي أخريات أيامه كانت ثورات الجماهير تشتعل في أطراف البلاد ووباء الطاعون يدق أبوابها.

تنتمي لمجانين ضلال الزجاج من أُسر المُلك الوراثي في أوربا، أو المسنين في ملاجئ العجزة، أو غير هؤلاء وأولئك. كما لم تكن هلوسة مرضية تلك التي برقت في كياني فشف أمامي «ساحر الزجاج» في يوم الورشة بعد أن حدق في عينيَّ ولمس رأسي. لم تكن هلوسة مرضية وإن كانت مطابقة للهلاوس البصرية التي يشخصون بها جنون المجانين، ومن ثم كنت في عملي لا أتشبث كثيرا بالهلاوس البصرية أو السمعية كأعراض حاسمة في تشخيص الذُّهان، وربما كانت هذه التجربة الحسية النفسية، هي التي جعلتني - من دون إِشعار - أتبنى وجهة نظر «المدرسة المضادة للطب النفسي»، والتي ينصب رفضها على ذلك النوع من الطب النفسي المتغطرس، الذي لا يعترف بحيرته أمام غوامض القارة المجهولة داخلنا، قارة النفس البشرية، لهذا عشقت حيرة لانج وساز، ومثلهما في السنين التي عملت فيها طبيبا نفسيا لم أحب التسرع في وصم حتى المجانين بالجنون، بل كنت أُحرِّض بعضهم أن يحترموا أنفسهم ولا يبتذلوها بالاستسلام لمنحدر الجنون. وراح يتضح أمامي بجلاء مطِّرد اليقين، أن العقل الذي يُنتج الهلاوس البصرية خاصة، هو نفسه عقل الحالم الذي يبدع أعجب الأحلام الرائقة Lucid dreams التي تشكل أحلاما داخل الأحلام ووعيا بأن ما يراه الإنسان ليس إلا حلما، فلماذا لا تكون ما ندعوها «هلاوس بصرية» مجرد أحلام مرئية في الصحو، لسبب ما، ليس حتما أن يكون الجنون.

* * *

هل كان «ساحر الزجاج» في طفولتي هو نفسه «مجنون الغيوم» الذي رحت أبحث عنه وأنا كهل في شمالي جدانسك على حدود بحر

البلطيق؟ هاجس يقارب اليقين استبد بي وأنا أمضي مع مرافقي الذي يحكي لي أن تلك المنطقة التي رحنا نجول فيها بحثا عن المجذوب كانت البقعة التي انطلقت منها الشرارة الأولى للحرب العالمية الثانية، عندما غزت قوات هتلر بولندا بزعم اضطهاد اليهود المتنفذين بترسانة جدانسك البحرية للعمال الألمان. ثمة من يُكذِّب هذا الزعم، وثمة من يرجحه، ولم يكن يعنيني ذلك فيما كنت مشغولا بالاحتمال الخارق للعثور على إنساني الشفاف، ساحر زجاج طفولتي، بعد أربعين سنة. لم أكن مكترثا بالتكذيب أو الترجيح لدوافع هتلر في غزو بولندا ثم اجتياح أوربا حتى دمار بلاده ودماره، لأنني في داخلي قلت إن الأمر في النهاية لم يكن مبررا لإحراق العالم، وقتل أكثر من ستين مليونا في هذه الحرب الدموية المسعورة من كل أطرافها، ولعل هذا مما جعل رجل طفولتي الشفاف يهتدي ببصيرته إلى هذه البقعة الفارقة في تاريخ الحماقة البشرية، ويستقر بها لأن اختراقاته أنبأته أن من يرى تطرف وحشية الحماقة ينحاز للتشبث بسلام الحكمة، وأن هذه الأرض لن تنجر إلى جنون حرب أخرى، خصوصا وقد أخبرني مرافقي أن «مجنون الغيوم» كثيرا ما يُشاهَد هائما متطلعا إلى السماء يهذي، وهو يدور حول النُصب الجرانيتي الرمادي المُكرَّس لتخليد أفراد الحامية الصغيرة التي استماتت في صد إعصار الغزو النازي عند بدايته، فاكتسح الألمان بسالتها في لحظات، ليحضر هتلر ويحتفل بانتصاره الخاطف في المكان، وهو لا يدري بأنه يدشن بداية هزيمته الساحقة.

* * *

كان قوس الحكاية عندي، يبرر عند نقطة انقطاعه احتمال أن يكون الرجل قد تمكن بالفعل من الوصول إلى هذه النقطة التي لا تخطر على بال أحد في بلادنا وقتها، فآخر ما وصلتُ إليه من حكاية رجلنا الشفاف أن أمره قد انتهى ببلدتنا إلى ما يشبه هياجا عاما عارما، أنارته كشوفات ذلك المخلوق الثاقب حيثما حل وأينما التقى، وكانت الألسنة تتناقل بث إذاعاته بما يشبه العدوى، مع زيادة درجة الحمى في تناقلها، وعندما اتقدت الإشاعات عن قرب قتله اختفى. وتردد أن والديه بعلاقات الود التي يملكانها في المجتمع، وبجزء ضخم من ثروتهما اشتريا نجاة ابنهما الوحيد ممن يمتلكون السطوة والنفوذ، ويقدرون على تهريبه إلى مكان ناءٍ يحول دون النيل منه، ويُريحهم منه. فهل كان المكان هو هذه البقعة النائية من أقصى الشمال البولندي؟ هل كان «مجنون غيوم» جدانسك، هو «ساحر زجاج» طفولتي، أعجوبة تاريخ بلدتنا غير المكتوب؟

* * *

في البداية لم نجد «مجنون الغيوم» حول النصب الجرانيتي عند قمة «وستر بلات»، وقال مرافقي إنه كثيرا ما كان شروده السارح في السماء يقوده إلى الهبوط عن مرتفع الأرض، فينزل إلى المنخفض المحيط بالتلة، يتوارى بين أغصان الأشجار كثيفة الخضرة بالقرب من متحف الحرب العالمية الجنونية الثانية، أو في محيط محطة الباصات القريبة من المتحف التي تبدو مهجورة برغم انتظام مجيء وذهاب مركباتها الصفراء المضعضعة فاقعة الصُفرة. لم نجده في المُنخَفض، فعدنا نصعد التلة التي يعتليها النصب ويتحلق حوله

ويجلس على درجات قاعدته عدد قليل من مرتادي المكان. وبرغم أننا كنا في منتصف الصيف، فإن الغيوم الداكنة أخذت تتكاثف مخفية زرقة السماء فوق رمادية البحر المضطرب، فكأن المدى كله من رصاص. وراح رذاذ ناعم يهمى من السماء راسما أكثر من قوس قزح بين السماء والبحر المتواصلين، يُنذر بأن الهطل سيتدفق من السماء كثيفا، بينما لم أكن أنا ولا مرافقي مزودين بمظلة ولا أي وسيلة تحمينا من ذلك المطر الذي حذرني مرافقي بأنه سيغرقنا. كنت شديد الإصرار على أن نستمر في البحث عن «مجنون الغيوم» مهما يشتد المطر، فلم يعد هذا «المجنون» في يقيني ونحن على هذه القمة الخضراء المطلة على البحر المضطرب والرابضة تحت السماء الحُبلى بالمطر، إلا ساحر زجاج طفولتي الشفاف نفسه، والذي اختفي في ملابسات غامضة، ومات والداه بعد اختفائه بفترة وجيزة، مرِضا تِباعا ورحلا في تعاقب، الأم ثم الأب بعدها بستة أشهر، من دون أن يظهر للابن أدنى أثر، فهل يظهر لي؟

* * *

ونحن نهرول لاهثين نحو قمة التلة التي تبدو السحب الكثيفة الداكنة شديدة الانخفاض وكأنها تسقفها، أخذ مرافقي يثرثر حاكيا عن أن «المجنون» عندما ظهر في شوارع جدانسك منذ سنوات بعيدة كان حسن المظهر وتبدو عليه النعمة. كان يتوقف مُعترضا الناس في الشوارع بلطف لم يكن يخيفهم، يحدق في عيونهم ويهذي بكلام غير مفهوم فيضحكون في وجهه لغرابة اللغة، أو يعبسون، ثم ينصرفون، وينصرف هو في سلام. وشيئا فشيئا راح

يمضي في طريقه لا يُقاطع طريق الناس ولا يحدق في عيونهم أو يتكلم، بل يرفع رأسه إلى السماء مواصلا هذيانه كأنه يحادث غيومها، خصوصا في مواسم المطر. ومع طول السنين أخذ يتحول بهيئته إلى صورة مجذوب رث الثياب سائب الشعر مرسل اللحية والشارب لا يحادث إلا السماء وغيومها، ويتجه إلى حافة البحر.

* * *

انفتحت كل محابس السماء الغائمة فوق التلة الخضراء كأنما بغتة، وكان المطر عنيفا حتى إنه بللنا حتى العظام في دقائق قليلة ركضناها باتجاه مكان نحتمي فيه من عنف الهطل. جذبنا سموق نصب شهداء تلك الحرب المجنونة الذي ينتصب وسط خضرة قمة التل المُعبَّدة التي غسل المطر عشبها فبدا زاهيا صارخ الاخضرار، كما غسل المطر جرانيت النصب فدكنت رماديته ولمع تشكيله الصاعد على هيئة عمود رباعي يتسنمه رأس منحوت بأسلوب تكعيبي، وأوضح البلل أن ما يبدو كعينين للرأس من بعيد يتضح مع الاقتراب نحتا لجنديين شاكيي السلاح في وقفة شامخة. ومع اقترابنا أكثر من قاعدة النصب أبطأنا مُحاذرين أن ننزلق على الأرض المعشبة التي تحولت إلى ساحة تزلق على العشب المبتل والطين تحته، وما أن وجدنا مكانا نتواري فيه حتى عثرنا على الشيخ الهاذي.

كان عجوزا سائب الشعر مهلهل الثياب، يقرفص محميا من المطر تحت نتوء بارز من جرانيت النصب بدا وكأنه رف صُمِّم خصيصا لحمايته من البلل. وكان يمد عنقه الذابل رافعا وجهه

مُحادِثا الغيوم حقا، بهذيانات غريبة المفردات بها أصداء عربية ليست قليلة، لكنها لم تكن العربية على أي حال. وبينما وقفت قبالته مُشرَّدا نظرتي المحدقة فيه دون أن أراه، كنت أحس في داخلي بيقين واضح، بأن ما رأيته في طفولتي أمام «ساحر الزجاج» لم يكن هلوسة بصرية مرضية، بل حالة من حالات تبدل الإدراك في عقل طفل صغير لم يكن ليتحمل كثافة وثقل مجاز بالغ القوة، استعارة عميقة تعبر عن حقيقة ماثلة لم يكن الطفل ليستوعبها إلا بتجسيدها وإدراك هذا التجسيد. كان هذا يبعث داخلي حبورا شفيفا بأنني لم أُجن ولن أُجن، ولا ينبغي أن يجن من تنتابه حالة مماثلة في وضع مُماثِل، فهي لمعة برق لا يحرق ولا يصعق ولا خطورة من عبورها سماء الذهن لحظة. لكن حبوري ذاك، ظل يوشيه حزن أسيف، فيقيني في سلامة عقلي كان يُمازجه يقين آخر، أن ساحر زجاج طفولتي قد قُتِل. بطريقة ما..قتلوه.

صياد النسيم

«كمهندس، طالما أملك القدرة والوسيلة لإراحة الناس فإن الله لن يغفر لي مطلقا أن أرفع درجة الحرارة داخل البيت ١٧ درجة مئوية متعمدا». قالها حسن فتحي، وقد كانت لديه القدرة والوسيلة كمهندس معماري كبير أن يفعل ذلك في تصميماته وأبنيته. وبقدر ما نجح في ترك تراث مبكر التأثير في العمارة البيئية في العالم، بقدر ما وُضِعت في وجهه العراقيل ليفشل لدينا. فما بالكم بواحد مثلي، ليس مهندسا وليس معماريا كبيرا ولا شهيرا، بل مجرد مُحاسِب مهتم بقضايا البيئة، قدَّم ابتكارا يعيد تأهيل تلك المساكن التي ابتلانا بها من لن يسامحهم الله فيها أبدا. فهي مساكن تطيح بكل البديهيات التي تخفف الحرارة داخل البيوت في بلدنا الذي صار ويصير حارا أكثر مع الوقت. وقد هداني الله للفكرة المنقذة، وعكفت على تأصيلها، ونجح نموذجها التجريبي في شقتي القبلية التي تبهظ حرارتها الروح، فحولها إلى بحرية ترد الروح، لكنها انتكست قبلية من جديد، ولسبب شبه هزلي وضعه الواقع أمامي، عنوانه دودة بشرية تزحف على الأرض بسرعة دراجة منطلقة على الأسفلت، ووراءها قرداتي كالح وقرد مقروح وكلب أغبر، ومساخر أخرى. لن تصدقوا؟! دعوني إذن أحكي الحكاية، على الأقل لأفضفض، فالفضفضة تريح.. وتروِّح...

* * *

شقتي كانت قبلية. قبلية بكل غرفها وصالتها على واجهة تشويها

شمس مسعورة من الشروق حتى الغروب. تتحول الواجهة بجدرانها ونوافذها التي من الألومينيوم والزجاج إلى فرن بلا نار. فرن يشعُّ حرارة ثقيلة تنتشر وتزهق روح الشقة كلها وروحي. وكنت لو فكرت في قليل من الابتراد بفتح النوافذ بعد غروب الشمس عندما تبدأ درجة الحرارة في الانخفاض، فإنني لا أهنأ حتى بنصف نسمة. يدخل بعوض المساء وذباب النهار والليل وتهجم روائح عوادم السيارات والدراجات النارية وضوضاء محركاتها وزعيق البشر. وتتحول «شقة العمر» التي دفعت فيها كل ما أملك إلى كابوس في جحيم خانق. وكنت قد أعددتها لأتزوج فيها منذ خمسة وعشرين عاما، عندما كنت في الثلاثين.

ماذا كنت أفعل؟ ظللت ألوم نفسي بلا انقطاع لعدم انتباهي واختيار شقة تكون واجهتها بحرية في بلد تكاد تكون كل مواسمه صيفا. موسم طويل حار يبدأ من الثلث الثاني من الربيع ويتقد طوال الصيف ولا يغادر في الخريف بل لا يختفي حتى في الشتاء. صيف يستغرق ثلاثة أرباع السنة تقريبا بل العام كله باستثناء أيام نادرة خاطفة تمطر فيها الدنيا أو يزقزق البرد. ثم إن أكثر من مليوني سيارة لا تتوقف عن دهس شوارع هذه المدينة المتورمة بلا انقطاع نافِثةً في صدرها الذي انعدمت رئاته الخضراء غازات عوادمها وحرارة هذه العوادم. يسكنها عشرون مليونا يشهقون من صهدها ويزفرون صهدا. وينضاف إليهم أكثر من خمسة ملايين يتدفقون عليها كل نهار ولا يغادرون إلا في الليل. يشاركون في إحياء مهرجان الصهد المكلل بمئات آلاف أجهزة التكييف التي لا تتوقف كمبروسوراتها

عن طحن الهواء لتنفثه باردا داخل البيوت وتخرجه زفرات ساخنة ورطبة تزيد طين التلوث بلة. تتحول المدينة إلى جزيرة حرارية جهنمية لا رحمة فيها حتى مع حلول بعض الرحمة في المساء. ماذا كنت أفعل؟

«عليك بالبلاك آوت». سمعت النصيحة وضحيت ببهجة ألوان وأزهار الستائر الرقيقة التي انتقيتها خفيفة لطيفة ليضرب فيها ضوء النهار فترسم حديقة منيرة بطول الواجهة وكل النوافذ لتسر قلب من كنت سأختارها زوجة. بطَّنت ستائر الرِّقَّة بأثقال قماش البلاك آوت الكتيم فخفف الحر قليلا لكن الدنيا صارت عتمة في عز النهار. عتمة كانت تشعرني بأنني سجين ومُحاصَر فتضيف إلى عصبيتي وسوسة مخبولة تجعلني لا أكف عن رفع أذيال الستائر ليدخل ضوء النهار برهة. برهة خاطفة أرنو فيها إلى الحياة في الخارج فأندفع لا إراديا وعلى غير طبيعتي في إطلاق سيل من شتائم مقذعة لكل ما أبصره ثم أسدل أذيال الستائر بعنف. ولا أكف عن تكرار ذلك لا إراديا.. حتى خِفت أن أُجن.

في ذروة موجة من تلك الموجات الوسواسية رفعت ذيل ستارة البلاك آوت. حدقت بغِلٍ في وهج ضوء الشمس الحارق خارج الزجاج. ومسحت بنظرة حقد طويلة ملامح الشارع المعادي والدنيا المستعرة، ومكثت أشتم وأشتم وأشتم وكأنني أتلذذ ببذاءة الشتائم وأنا شبه عارٍ أتصبب عرقا. لكنني فجأة سكت. ثبتت عيناي على زاوية رؤية رحت معها أندهش وأنتعش. اكتشف كأنما لم أرها من قبل: مدخنة مطعم الفلافل في الطابق الأرضي بعمارة قريبة!

تبرز من جانب واجهة المطعم ثم تصعد فضية لامعة تغلفها رقائق الألومينوم وتواصل صعودها ملتصقة بواجهة البرج السكني حتى تتجاوز سطحه بعد الطابق الخامس عشر. كيف غابت عن بصري هذه المدخنة من قبل؟ وكيف تأخرت الفكرة؟ أخذت أُقرِّع نفسي.. لكن بجذل!

«فكرة فكرة فكرة». همست لنفسي متهللا وأنا أودِّع بنظرات حانية تلك المدخنة الرافلة في البريق الفضي. أفلتُّ طرف ستارة البلاك أوت في دورة راقصة فاختفي وهج الضوء الخارجي وعادت العتمة. لكنني في هذه العتمة كنت أضيء متوهجا بحماسة داخلية لفكرة كأنها هبطت عليَّ مكتملة وراحت تستحوذ على كياني المأخوذ كله. فكرة تتعلق بنظرية ارتفاع الهواء الساخن وهبوط البارد في كل المداخن، لكن بشكل معكوس. كيف تكون هناك مدخنة مضادة تستدرج الهواء البارد وتهبط به لتهوية المساكن وتبريدها مع ترك منافذ لطرد الهواء الساخن إلى الخارج وأعلى. استشعرت داخلي يقينا مُؤكَّدا في العثور على مدخنة مضادة من هذا النوع. وانتعشت في ذاكرتي أحاسيس الابتراد والطراوة في مناور التهوية وآبار سلالم العمائر القديمة العريقة بوسط البلد مهما كان حر الشوارع متقدا. عكفت من فوري على تأصيل حدسي بالقراءة في الهندسة والفيزياء والعمارة لأفهم أسرار حركية الهواء التي تُشكل تلك المعارضة البديعة للقيظ. لكنني عندما قرأت فصل «العمارة والمناخ» للعبقري المصري المغدور حسن فتحي في كتابه «عمارة الفقراء» اكتشفت أنه كان يمكنني اختصار ذلك الكدح

الذهني كله والذهاب إلى تجسيد فكرتي مباشرة وبثقة في تنفيذها ونجاح النتائج.

حكى حسن فتحي عن زيارته لقرية القرنة لأول مرة في منتصف الصيف. وكيف أنه اضطر للجُّوء إلى الظل ليحتمي من الشمس الحارقة، فدخل مضيفة قريبة. وفوجئ داخل مقصورتها بتيار بارد منعش من الهواء انبرى في البحث عن أسراره وتفسيره. واكتشف أن هذا التيار كان سببه بناء المقصورة وظهرها إلى الريح الشمالية الباردة. وقد فتح بنّاؤُها التقليدي البسيط العبقري للريح فتحات صغيرة في صفين بأعلى الجدار. كانت تلك اللمحة تخالف الشائع في التطبيق المعماري الذي يجعل الفتحات الكبرى في مواجهة الريح لاصطياد أكبر قدر من الهواء. ولأن حسن فتحي كان عالِما بصيرا ومُتشعب المعارف، فقد أدرك أن ذلك الإلهام الموروث يتسق تماما مع مفاهيم ديناميات أو حركية الهواء الحديثة في نظريات الفيزياء. حيث إن انسياب الهواء من فوق ومن حول الفتحات الصغيرة كفيل بخلق فارق ضغط بين داخلها وخارجها يشد تيارا هوائيا ثابتا عبر هذه الفتحات ويدفع به إلى داخل المقصورة.

تكلم حسن فتحي أيضا عن «الملقف» أو «مصيدة الريح». ففي بيوت القاهرة القديمة تؤدَّى وظيفة التهوية في الأبهاء أو القاعات الرئيسة بواسطة تجهيز يُدعى «الملقف» يصطاد الريح القوية النقية بفتحات مواجهة لجهة هبوبها من زاوية مناسبة بصرف النظر عن توجيه البيت. ويكتمل ذلك الملقف بتصميم خاص للغرفة ليكون

مركزها المُسمَّى «درقاعة» عاليا جدا بما يجذب الهواء الساخن عند القمة فيسهُل طرده.

وكنت وأنا أُمعن في قراءة ذلك مشغولا بفكرتي: كيف أصنع مصيدة هواء خاصة بي. خاصة بشقتي المبنية ضمن ملايين الشقق مثلها بتصميمات رديئة تخفض ارتفاع السقوف فتشل حركة تدوير الهواء فيها، كما أنها لا تعبأ بتوجيه مناسب كان أبسط البنائين البسطاء القدامى يعرفونه. شقتي وملايين الشقق «الحديثة» مثلها لم يكن مقاولو بنائها وتابعوهم من المهندسين والمصممين يعبئون إلا بالتوجه نحو الربح. الربح الفاحش والبذيء من أبراج سكنية دميمة متلاصقة تسد باب الريح الشمالية الطيبة بمؤخراتها الأسمنتية القبيحة وتفتح باب جهنم للجزر الحرارية التي تشتعل حرارة شوارعها بحمى انتشار أجهزة التكييف الأجشة.

توصلت بعد شهرين من الانهماك الكامل في أعقاب التماع الفكرة برأسي إلى تصميم مدخنتي المضادة. ألهمني حسن فتحي بدراسة كثير من ابتكارات التراث المعماري العظيم في البلدان الحارة بمنطقتنا لجعل البيوت أحنى على ساكنيها وأهنأ بالظل والنسيم. تأملت المشربيات وشيش النوافذ وباجادير بيوت الخليج القديمة وشُرَّاعات البيوت النوبية المزخرفة وشناشيل العراق. وصممت بكل ذلك الإلهام مصيدة للهواء تعيد تأهيل شقتي المُعاقة هذه ومئات آلاف أو ملايين الشقق مثلها. سرني أن شقتي في الطابق الثالث بينما العمارة كلها لا تزيد عن خمسة طوابق وارتفاع كل طابق لا يزيد تبعا لتسميم لا تصميم أيامنا هذه عن مترين وخمسة وسبعين

سنتيمترا. والأنبوب الذي فكرت فيه لن يزيد طوله عن عشرة أمتار بقطر نصف المتر. يخرج الأنبوب من قمرية أفتحها بمنشار «صاروخ» في جدار «الريسبشن» ثم ينحني ليصعد متسلقا واجهة العمارة إلى السطح. وعند السطح ينحني أفقيا بزاوية ٩٠ درجة. يفتح على فضاء السطح ببوق واسع كأبواق الجرامو فونات القديمة وفوهته مغطاة بما يطابق شيش يحقق أعجوبة الفتحات الصغيرة في استدراج الريح. وهذا البوق يَسهُل تحريك عنقه بارتكازه على مجرى دائري أو رولمان بلي بقطر كبير ليتخذ اتجاه الشمال الغربي. الجهة التي يهب منها تيار «الهوا البحري» الأبرد والأكثر إنعاشا. وبالطبع سيكون الأنبوب مغلفا برقائق ورق الألومينيوم ليعكس بريقها المعدني أشعة الشمس فلا يسخن الأنبوب ولا يُتلِف ابتراد ما يهبط فيه من نسيم أحببت تسميته: «نسيم الصبا». وخطر لي ببهجة غامرة أنه إذا جاءتني بنت من زواجي المرتقب سأسميها «صبا». وفي غمرة ابتهاجي كنت منشرحا نشوان أناديها وأدللها قبل أن تجيء: «صِبا. صِبا. صِبا!».

ومنشرحا نشوان رحت أضيف إلى ابتكاري شبكة دقيقة وغير معيقة على مدخل الهواء البارد في الشقة تمنع دخول الحشرات وفوقها غطاء «قمرية» جميل. بل «قمريتان لا واحدة» ــ قلتها لنفسي بصوت مسموع مستدركا ومستنكرا نسياني لأمر بديهي إلى هذا الحد. لابد من فَتْح قمرية ثانية تُناظر قمرية فتحة أنبوب نسيم الصبا وتكون أعلى منها لإخراج الهواء الساخن وتدعيم دوران الهواء وتجديده في الشقة. وسأغطي قمرية فتحة دخول النسيم

بباب لطيف مستدير من الحديد المشغول تتوسطه عبارة «شباك النسيم» بخط فني جميل وسط شبكة من أغصان مورقة ويُطلَى بأزرق فيروزي فاتح بنكهة ألوان الباستل المفرحة. وبنكهة ألوان الباستل المُفرحة أيضا وإن ببرتقالي فاتح يكون طلاء غطاء الحديد المشغول لقمرية خروج الهواء الساخن التي لم أعثر لها على تسمية.

كنسيم الصبا راحت أفكار الابتكار تتجسد بين يديَّ بسلاسة ولطف بالغين وفي زمن قياسي. استغرق التنفيذ شهرين وإلى حين مشارفة الابتكار وتجهيزاته على الاكتمال لم أكن توصلت لتسمية أراها لائقة به. كنت مُصِرًّا على تنفيذ الجهاز في ورش الخراطة وأعمال المعادن بحي الحسينية في مدينة نشأتي وزهرة عمري «المنصورة». المدينة الجميلة التي غادرتها فلم تغادرني. وما تزال تسكن روحي برغم ما لحق بها وبي من تغيرات. ظلت وما تزال داخلي بتذكارات كورنيشها البديع ونيلها وفلايك الفسحة وممشى جسرها العتيق ومقاهي الضفتين النظيفة الأنيقة وجميلات صباياها اللائي كن يخطرن عطرا وألقا على حواف القلوب. وكانت تهب عليَّ وأنا أقلب ذكريات المنصورة في نفسي نسائم غامضة تنعش الروح وكأنها قادمة من مكان وزمان بعيدين وقريبين في آن. وطلبت من أسطوات ورشة الصاج في المنصورة أن يدمغوا حافة بوق النموذج الأول من جهازي بحروف كبيرة غائرة وواضحة بالعربية والإنجليزية: «صياد نسيم المنصورة» Mansura Breeze hunter.

* * *

«نجاح لا يُصدّق». ثمة من نصحني بتسجيل براءة اختراع تحفظ

لي حقوق الملكية الفكرية و تدر عليَّ كثيرًا من المال والشهرة، لكنني اكتفيت بأن أكون رائدا للفكرة وأول من يشمله نسيم صباها لطيف الابتراد. أول شقة قبلية خانقة يُعاد تأهيلها لتصير بحرية دون أي تعديلات معمارية ودون استهلاك لأي طاقة. صارت شقتي مزارا يؤمه عند العصاري مهندسون معماريون وأصحاب مكاتب ديكور وباحثون في شئون البيئة وكثرة ممن يعانون حرارة بيوتهم ذات الواجهات القبلية وغير القبلية. أذهلهم شلال نسائم «الهوا البحري» المنساب من الأنبوب والمتدفق من «شباك النسيم». أكدوا متحمسين أنهم سيحولون مساكنهم إلى بحرية الهوا على غرار شقتي الُمكيفة بلطف دون مراوح تئز ولا أجهزة تكييف تطن. لكن كل ذلك الحماس الذي لمسته لدى من عاينوا أعجوبتي لم يتحول إلى تنفيذ فعلي. ولا تفسير لديَّ إلا أن السبب كان وما يزال استسهال تركيب أجهزة التكييف والطمع في ابتراد أزيد دون حساب للأعباء البيئية والاقتصادية والعواقب على الصحة. ولم يحبطني ذلك.

كنت مُشبعا برضا الحصول على هذا القدر من النسائم النقية دون أعباء ولا عواقب. وكنت أراهن على الأفهام والمستقبل. صارت الشقة بحرية برغم ابتعادها عن البحر بثلاثمائة كيلو مترا وطابت لي أماسيها في عز صهد الصيف. بات نعاسي فيها أسرع وأنعم وأعمق دون ضوضاء تكييف أو أزيز مروحة أو ضجة أو تلوث هواء شارع تنفتح عليه النوافذ حتى لو كانت بحرية الاتجاه. وكان «صياد نسيم المنصورة» لا يصطاد لي نسيم الصبا وحده بل يصطاد لي مع

النسيم أحلاما ناعمة توشي نومي الذي صار نعيما. وعادت لي هِبةٌ كنت أملكها من أيام الطفولة والصبا في المنصورة أستطيع بها أن أشكل أحلام نومي على ما أحب وأهوى فأرى من تسرني رؤيته وأنال من البهجة ما أشتهي. كانت أحلام نسيم المنصورة متعة. وصارت أحلام «صياد نسيم المنصورة» متعة أيضا وإن بغير ما كان من سخاء. لكن النعمة لا تدوم! وكيف كانت تدوم داخل فقاعة نقاء ورحمة تضطرب على موج محيطٍ هائجٍ ملوث؟..

* * *

بعد شهر واحد من ربيع الشقة الاستثنائي تسلل إليَّ في قلب فقاعة نسيم الصبا عِوضا عن الحلم كابوس. كابوس مفزع. رأيت أفعى أناكوندا عملاقة تهبط من شباك النسيم. دَفَعَتْ غطاء الحديد المشغول ذا اللون السماوي الفاتح وانزلقت بكامل طولها إلى أرض الريسبشن وراحت تتجه نحوي. جسمها الأسطواني العضلي المخيف راح يشع بالقدرة المرعبة على الالتفاف والاعتصار. عيونها ثابتة التحديق جمّدتني رعبا، وتثاؤب أشداقها أرعش جلدي بشعور من يتم ابتلاعه. أخذت أتراجع بظهري أمامها من الريسبشن إلى الردهة إلى غرفة النوم وهي تزحف نحوي ببطء ثقيلٍ قاتمٍ وقاتل. وفي الركن حاصرتني. وما أن أحسست بجلدها المحرشف الزلق يلمسني حتى صرخت. وعلى صوت صرختي استيقظت فسمعت قرقعة تأتي من جهة «شباك النسيم».

* * *

تصورت يومها للحظات أنني لم أكن أحلم بل أرى. كان أثر

النوم والكابوس ماثلين في وعيي بما يشبه اللاوعي. لم أفكر في «لا منطقية» مجيء حية أناكوندا ليست موجودة أبدا في أحراش مصر فكيف تكون في مدنها. خفق قلبي وجَلا وأنا أتقدم بحذر في الصالة المظلمة ثم أضاءت النور فارتبكت قبل أن أستوعب ما أراه. كان هناك رأس رجل أغبر كالح يطل من فتحة «شباك النسيم» في الجدار بعد إزاحة غطائها الذي سقط على الأرض وتدحرج مستقرا في الركن. أخذ الرجل يناديني بعد أن توقف عن تملصه اليائس داخل الأنبوب وقد وضح انحشاره فيه. كان يستجدي: «انجدني يا بيه الله يسترك.. أنا حرامي وابن حرام وطالب السماح. انجدني يا بيه».

هممت بالتراجع باحثا عن شيء أدافع به عن نفسي لكن نظرة ثانية إلى وجه المحشور جعلتني أتوقف ممسكا بظهر مقعد من مقاعد طاولة الطعام وأخذت أتقدم بحذر دافعا المقعد أمامي متأهبا لرفع الكرسي وضرب رأسه إن نجح في التقدم والهبوط لمهاجمتي. وسرعان ما تبينت عجزه عن التقدم أو التقهقر. لقد انحشر وهو يزحف على بطنه في المنطقة التي يتقوس فيها الأنبوب ليصعد نحو السطح. صار رأسه مع الصدر والبطن في الجزء الأفقي من الأنبوب وتقوس ظهره بشكل غير طبيعي تاركا نصفه الأسفل مقلوبا في الجزء الرأسي الصاعد.

«آه يا بيه. آه يا بيه. محصور موت يا بيه» فاجأني صراخه الملتاع. شعرت بغضب وقرف دفعاني إلى الزعيق بقسوة لم أكن أتصورها في نفسي: «وحياة أهلك لو عملتها ووسخت الدنيا لأقلع عينيك». وما أن أنهيت تهديدي حتى ساد صمت مُطبق. وفي الصمت والعتمة

الخفيفة للشقة الخالية تسلل إلى سمعي صوت غريب. أليم وجارح ومكبوح. كان الرجل المحشور يبكي كاتما بكاءه. عيناه تفيضان بالدموع والدموع تتساقط على بلاط البورسلين الأشهب المصقول مباشرة من العينين دون أن تسيل على وجهه الذي كان منكفئا في تعلقه. كان لتساقط الدموع على البلاط صوت واخز: «تك تك تك تك». رشقني بانفعالات متضاربة.

أسرعت مرتبكا إلى الحمام وأحضرت دلوا من دلاء البلاستيك ورفعته بين يديَّ تحت فتحة الجدار التي يطل منها رأس المحشور. شجعته بعصبية يختلط فيها الغضب بالضحك الذي أخذ يغالبني «اتفضّل جنابك. فك نفسك». وخدش الصمت صوت رشاش مكتوم في عمق الأنبوب تبعه ورود سرسوب البول المنساب تحت ذقنه. يتسقط ضاربا قاع الدلو بخرير مُجسَّم يتصاعد عنه بخار حامض. لم يكن لي أن أفلت الدلو أو أوقف ما سمحت بانطلاقه. ومع صعود موجة تقززي وحنقي انفلتت مني بصقة في وجه اللص. وما كدت أحس بالألم والندم لقذف وجه إنسان بمثل هذه البصقة حتى أذهلني وجه المحشور يضيء بانشراح غريب مع تنهيدة ارتياح يردد بعدها: «خلاص يا بيه. موتني بقى. والله بجد. موتني».

اندهشت. جعلني تأملي للوجه المنشرح والمفارقة في طلب الموت بكل هذا الارتياح أنتفض ضحكا. هبطت بالدلو المرتج بين يديَّ من استمرار ضحكي ووضعته على الأرض وقد تراجع سرسوب البول ولم يعد غير نقاط تتساقط في الدلو بتباعد صوتٍ مجسَّم: «طق طق طق طق». وما أن شعرت بتحرري من عبء

الدلو وقرف المهمة حتى ارتميت مسترخيا على سجادة الأنتريه ووجهي يطل على وجه المحشور المطل من الجدار. وكان ذهني يصيغ المشهد: «رجلان مرتاحان في مفارقة غريبة يرنو كل منهما إلى الآخر»!

«ممكن أشرب يا بيه؟». نطق بها المحشور فانفجرت أقهقه ضاربا كفا بكف وأنا أتلوى من شده الضحك. ورددت في ذيل ضحكي «شاي ولّا قهوة حضرتك؟». وأجاب بهدوء وتواضع عميقين: «الشاي صعب. الميه كفاية ورضا قوي». وفي طريقي لإحضار الماء فكرت في أن المهمة عسيرة لو أراد المحشور أن يشرب بطريقة عادية من كوب أو زجاجة. خطر ببالي أن الارتشاف بواسطة شفاطة سيكون أنجح ولن يُعرِّض الماء للانسكاب على الأرض. انتزعت من علبة عصير صغيرة في الثلاجة شفاطتها ليشرب بها المحشور الماء من كوب أحمله إليه. لكنني تبينت أن علبة العصير لم تعد مجدية بغير الشفاطة فحملتها إليه بدلا من الماء. دسست الشفاطة في فمه فاستغرب لها ثم بدأ يمتص العصير من العلبة التي رفعتها قرب فمه. كان مع كل رشفة يشدها تتسع عيناه انبهارا حتى تبدوان وكأنهما ستخرجان من محجريهما. فرغت العلبة وصدر عن التشفيط في قاعها صوتٌ بقبقة خشنة أوقَفَت المحشور عن الشفط وفتح فمه بابتسامة شاسعة. فمٌ واسع على أسنان محطمة شغل معظم وجهه الممصوص فبدا كوجه مهرج مشدود الشفتين في قوسٍ كبيرٍ ضاحكٍ يستدعي ضحك من ينظر إليه. جَلْجَلتُ بالضحك فراح المحشور يضحك على ضحكي. رجلان يقهقهان

في مشهد غريب أنهيته هابطا بعلبة العصير مستمرا في الضحك. وموشًى بتهدجات الضحك وجدت نفسي أسأل المحشور: «وانت حرامي من امتى يا سي حرامي؟».

«حرامي؟!» أجاب المحشور عن السؤال بتساؤل أسيف وملامح حطمها الأسى. لعل فاصل الضحك المشترك بيننا أوحى إليه يومها بأنه وجد صديقا «ضرب معه صُحبة» وسيجد صديقه طريقة تُخرجه من محشره. «كدا برضو يا باشا؟» تساءل بانكسار وحزن. كنت في حالة استرخاء جعلتني أتمدد على سجادة الأنتريه في الركن الأقرب من إطلالة المحشور عبر الجدار. ومن رقدة استرخائي القريبة ساءلته بسخرية حاولت أن تكون نبرتها مازحة: «أمال يعني مفتش مباحث حضرتك. طبعا حرامي. واديك متلبس». «لا يا سعادة البيه» أجاب بتنهيدة شخص يريد أن ينفِّس عن أساه بالحكي، وكنت راقدا على السجادة مسترخيا متوسدا يديَّ وواضعا ساقا على ساق أريد لو أتسرَّى أنا الآخر بالحكي..

«شوف يا سعادة البيه» افتتح حكيه بهذه العبارة الداعية إلى التشويق والفرجة. وراح يحكي كيف أنه بدأ في السابعة من عمره يعمل صبيا في صنعة حدادة السواقي. تخصص نظرا لنحافته ومرونته في أن يكون صبي «برشام». يزحف مادا السندان الذي يحمله بين يديه ويدخل به في حلزون الساقية بعد تثقيب حواف أجزائها وتركيبها تركيبا أوليا. يوجهه الأسطى من الخارج بالزعيق وبضربات يديه على الصاج الذي يكون جديدا لامعا بلون الفضة وله دوي. يُدخِل الأسطى سيقان البرشام المعدنية في الثقوب

الواصلة بين شرائح الصاج المتقابلة، ثم يبدأ في دق رءوسها بمطرقة «النص مرزبة» من الخارج بينما الصبي يصد أطراف سيقان البرشام بالسندان من الداخل. تتبطط سيقان البرشام وتوثق الصاج بالصاج فتتماسك ساقية. نهارات طويلة مضت مع الدق الذي يضرب كالرعد في أذني الصبي داخل متاهته المعدنية وهو يواصل الزحف والصد بسندان حديدي ثقيل على يديه الصغيرتين. ومع السنين ونمو القوة في الأذرع التي مكثت نحيلة، وبرغم تكيف السمع مع رعد الدق، صار السندان أخف لكن الزحف صار أصعب. وما أن أوشك على الترقي في حرفته والانتقال إلى مرتبة «أسطى برشامجي» يعمل من خارج السواقي حتى هبطت طلمبات الري ذات محركات الديزل على حواف الترع ورءوس الحقول. وبارت صنعة السواقي..

«لخِّص لخَّص؟» طلبت ضائقا منه أن يُوجِز هذا الفصل من حكايته. توقعت أنه فصل كئيب ومثقل بالغم وكنت لا أريد الغم في هذه اللحظة. وراح يلخص وإن بغم لا يستطيع الفكاك منه... كان في الخامسة عشرة يوم بار سوق السواقي وهو لا يعرف صنعة أخرى. لم تكن لديه أي مهارة يثق فيها غير بقايا قدرته على الزحف متلوبًا مثل دودة. دودة بشرية استثنائية في حركتها على الظهر أو البطن أو الجنب كان يبهر بها أقرانه عندما يسهرون للمسامرة في جرن القرية التي لم يعد يغادرها وهو عاطل. وعندما حل قرداتي على هذا الجرن ذات نهار بصحبة قرد وكلب وكان يحمل خُرجا متسخا على ظهره. دفع الأولاد بابن قريتهم ليقارع بمهارته حذق القرد في تقليد نوم العازب وعجين الفلاحة ورقدة العروس في

ليلة الدخلة. لمح القرداتي ببصيرة مستقبلية أعجوبة الولد الذي يكتسح الأرض الترابية بحركة دودية زاحفة بسرعة دراجة منطلقة على الأسفلت. صفق وأعلن ضمه إلى فريقه الذي كان مجرد قرد واحد يرتدي قبعة صغيرة من القش وكلب أغبر بإطار نظارة فارغ على عينيه وببيون أحمر مترب في عنقه ولم يكن يفعل شيئا سوى عرض قصير للمشي بضع خطوات منتصبا على قائمتيه ثم الإقعاء ساكنا يطرف بعينيه الكليلتين بجانب الحلقة كأنه يغالب النعاس.

دار «الإنسان الدودة العجيبة» كما كان يقدمه القرداتي في عروض فرقته من قرية إلى قرية ومن سوق إلى سوق ومن ميدان لميدان خمس سنوات كاملة. خمس سنوات من الحركة الدودية الزاحفة بعدها بدأت فقرات ظهره تتآكل ويتراكم ألمها. ألم عاصف كان يجبر الإنسان الدودة على الإبطاء في زحفه الذي صار متقلصا وكئيبا فألغي القرداتي نمرة «الدودة العجيبة» وطرد صاحبها مكتفيا بتمثيل قرده ورقص الكلب. هام صاحبنا على وجهه تلطِّش له الدنيا ويلطش فيها وفي آخر الليل يبحث عن مكان يبيت فيه. وفي تلك الليلة نجح في التسلل إلى سطح عمارتنا فأبصر ذلك البوق الكبير وامتداد أنبوبه الهابط حتى واجهة شقتي في الطابق الثالث فأدرك بخبرة الصبي الزاحف داخل حلزون السواقي أن الفرصة تناديه. قرر أن يضرب ضربته بآخر ما في ظهره الموجوع من مهارة دودية. يهبط للسرقة زاحفا عبر البوق وقناته ويعود بالمسروقات زاحفا إلى السطح ثم متسّحبا على الدرج إلى الشارع. إلى الحياة التي تنتظره وينتظرها. يبيع ما سرقه ويعود إلى قريته ليشتري جاموسة تربيها

أمه المعدمة. تحلبها وتبيع حليبها أو تصنع منه جبنا وزبدة وقشدة. ويعيش «عمدة» حتى آخر أيام حياته. لكنه انحشر!.

اكتشفت يومها أن الحكاية كلها تعيسة وأن المحشور ليس وحده الواقع في مأزق فأنا أيضا في مأزق. فالرجل محشور حشرا محكما ولن تزحزحه من مكانه إلا قوة جذب عنيفة وشديدة. لكن هذه يمكن أن تقصم ظهره فيهبط مشلولا على أرض شقتي وأحار كيف أتصرف فيه. وإن نزل سليما ربما تتجلى خافيته الإجرامية التي موهها بحكايته البائسة هذه. يكون معه مطواة يهاجمني بها فيصيبني أو يورطني في ارتكاب جريمة هيهات أن أثبت حقيقة ارتكابي لها دفاعا عن النفس. ولو أنني رفعت سماعة التليفون وطلبت الشرطة فستأتي في ضوضاء وتذهب في ضوضاء وأُعْلَق في محاضر ونيابة ومحاكم وابتزاز محام لا يشبع وربما عدة محامين مثله. وبينما أنا في موقف الحيرة وجدت المحشور كأنما بتخاطر غامض يُلقي إليَّ باقتراح جدير بالتجربة «زقني يا بيه. زقة لورا وأنا أكمل»!

«وجدتها يا أستاذ دودة؟!» رددتها يومها مُتهللا وذهبت إلى شرفة المنشر مُحضرا كرسي الزان الذي ينطوي فيصير سلما. اعتليته بثبات لأتمكن من دفع كتفي الرجل إلى الخلف وإلى أبعد مدى داخل الأنبوب لعله ينجح في التقهقر والابتعاد عني. وبينما رحت أدفع كنت أُعزِّم مُستدعيا أقصى قواي «هيييييي» فيجاوبني المحشور «هيييييي». كأننا معا ندفع عربة مغروزة في طريق موحل. وحين بدا أن كل هذا التعزيم يذهب سدى حدثت انزلاقة مباغتة إلى الخلف فهتف المحشور مُستبشرا «يا هادي». وبسرعة

دودة بشرية ذات قدرة مذهلة على الزحف إلى أعلى وضد الجاذبية الأرضية بمصاحبة تأوهات منتظمة «أه أه أه أه» اختفي اللص من «شباك النسيم». لم يعد يدل عليه غير صوت زحفٍ مُثابِر وتأوهٍ مُصاحِبٍ.. يبتعدان ويخفتان. بعدهما صدرت من عمق الأنبوب قرقعة وصوت خبطات فتنهيدة حارة نائية. ثم جاءني صوته يزعق من بعيد عبر الأنبوب: «مُشكّرين يا باشا. إلى اللكاء. إلى لكاء كادم». ولم يعد هناك غير صمت الليل!

«أي لقاء؟ أي لقاء قادم؟» جعلتني وسوسات الوحدة وهواجس آخر الليل أذهب إلى قراءة ذلك الوداع لا كعبارة خالية من معناها الأقرب في عقل إنسان بسيط يردد لازمة سمع في مقهى ما أو غُرزة ما مذيعي ومذيعات التلفزيون يرددونها مبتسمين ومبتسمات عند نهاية برامجهم ظانا أنه يرد الود «بثكافة » إلى إنسان «مثكف» أنقذه مرتين. من الحشر مرة ومن السجن مرة. بل قرأتها كوعيد يعلن فيه اللص عن معاودة المحاولة. لم أره في هذه اللحظة عقب اختفائه إلا كلص. ولم أر في حكايته التي سردها وهو محشور إلا تلفيقا طريفا يحاول الإفلات به من جريمة «التلبس باقتحام مسكن خاص بهدف السرقة». استولى عليَّ حينها أن هذا اللص أو أي لص آخر سيعاود التسلل عبر البوق والأنبوب إليَّ شقتي واقتحامها من شباك النسيم! فلم أنم. بقيت ساهرا أقاوم النوم حتى ضجت الدنيا بضوء النهار وأصوات الناس والعربات والحركة، فخرجت منبها على البواب أن يتأكد من إغلاق باب السطح زاعما أن سرقات رءوس أطباق «الدش» قد انتشرت في المنطقة. ولم أعد إلا ومعي بنَّاء ومعه أدواته وبضع قوالب طوب

وربع شيكارة بها خليط من الرمل والجبس والأسمنت. ولم أشعر بالارتياح إلا مع اكتمال سد شباك النسيم سدا مُحكَما يصعب اختراقه وكذلك القمرية التي بلا اسم. ورجعت الشقة قبلية.

وها أنذا بعد ربع قرن من الزمان في جوف هذه الشقة اللاهب الذي لم تخمد حرارته برغم ثقل ستائر البلاك آوت التي جددتها مرَّات من دون أن تكف عن إذابتها تهروئها حرارة الشمس الحارقة. ألوب عاريا وحيدا غارقا بالعرق في العتمة. أرفع أذيال الستائر الكتيمة ناظرا بعتاب أليم إلى قبح العمائر والشوارع من حولي. لم أعد أنظر بحقد ولم أعد أشتم بحرقة فقد صرت كهلا هدَّه الإحباط والوهن. لم أتزوج ولم أنجب «صبا» التي حلمت بها. وأقرأ الآن عبر الإنترنت بحزنٍ أسيف عن شركات عالمية مثل «بد زد» البريطانية، تنفذ «مدخنة مضادة» لتدفئة وتهوية مساكنها الصديقة للبيئة التي تبنيها في حي بدنجتون. بها فكرة مدخنتي المضادة نفسها، ولكنها تستدرج الهواء الدافئ من الجهة الجنوبية. عكس مدخنتي التي كانت تصطاد الهواء البارد من جهة الشمال الغربي. مدخنتي المضادة. صياد نسيم الصبا الذي سبقتُ به صياد هواء الإنجليز الدافئ بعشرين عاما على الأقل. على الأقل.

وَزَّة نهاية العالَم

تفاقم الذعر العام في مصر من أنفلونزا الطيور في شهر فبراير منذ خمس سنوات. ومع أن الندوة التي كنت أحضرها في إحدى قاعات فندق الواحة بطريق القاهرة الإسكندرية الصحراوى كانت عن «العلاج بالتصور الإبداعى» وكانت مرتبة سلفا قبل أن تبرز على السطح هذه الحمى الوافدة، إلا أن الندوة تحولت إلى سجال عن الوباء المُنتظَر بعد أن وجهت سيدة جميلة من الحضور سؤالا عما إذا كان «التصور الإبداعى» يمكن أن يساهم في الوقاية من العدوى بهذه الحمى أم لا!

كانت الإجابات اجتهادية وغير قاطعة. وانفرط عقد الندوة فتحوَّلَتْ إلى تفريغ لحالة الهلع الجماعي بتبادل الطمأنات وتهدئة المخاوف، وتسللتُ مع أحد الأصدقاء منصرفين من القاعة ومُغادرين الفندق. وما إن خرجنا إلى الطريق الذي كان خاليا في نحو الثانية ظهرا، حتى توقفنا كأنما بالتخاطر، مقررين أن نستمتع بشيء من دفء شمسٍ شتوية عطوف، بدت صغيرة جدا في السماء الغائمة، ولطيفة على الأرض.

بعد أن تمشينا كفاية في اتجاه ميدان الرماية بدأنا في استيقاف تاكسى. وبعد محاولات فاشلة اكتشفنا أننا ينبغى أن نغير قواعد الانتقاء، فقد كنا لا نستوقف غير السيارات التي تبدو جيدة، وكان سائقوها ما إن نتفوه بوجهتينا «ميدان المساحة وبعده الزمالك» حتى يشوِّح السائق بيده ويطير مبتعدا. فانتبهنا إلى أن هذه ساعة ذروة مرورية وأن مَقْصَدَينا يُعتبَران من أحكم مصايد الزحام في هذه الساعة التي تتوافق مع خروج عشرات المدارس المتكاثرة فيهما، وأدركنا أنه لن يلتقطنا إلا سائق بائس في تاكسى يشبهه في البؤس.

وجدنا نفسينا أخيرا داخل هيكل رميم لسيارة لم يكن فيها من كيان السيارات غير هدير أجش لموتور متحشرج، أما السائق فكان بتعبير يكاد يكون حرفيا «مومياء حية» في أسمال بالية. وقد تمليته عن قرب وأنا أجلس إلى جواره على المقعد الأمامى بينما جلس صديقى على المقعد الخلفى. ولم تكن هذه مقاعد سيارة بأي معنى، فقد كانت «دِكَك» خشبية واطئة من ذلك النوع المتواضع المنتشر في غُرز ومقاهي القرى والعشوائيات، وكانت مغطاة بقطع من أكلمة قطنية بالية متسخة.

كان الرجل شديد النحافة رث الثياب بدرجة مؤلمة، غامق البشرة بدُكنة ترابية معتمة مشوبة باخضرار قاتم، مما يشي بأنه كان معطوب الكبد تماما وكذلك الكليتين، وكانت عيناه الغائرتان توحيان بأنه أقرب ما يكون من الموت في أي لحظة. وقد ملأني هذا بالقلق بينما كانت «السيارة» المضعضعة تقرقع وتتقافز وتنحرف بحدة في الطريق الذي كان مُهمَلا سيئ الرصف. وحتى أتغلب على قلقي استدرت لمحادثة صديقي في الخلف.

استدرجَنا الحديث إلى «سيناريوهات الكارثة» في ضوء ما كان منتشرا من إشاعات عن تحوُّر الفيروس واحتمال تحول الوباء إلى جائحة بشرية، حيث ستتراكم الجثث في الشوارع لأنها ستكون من الكثرة بحيث يتعذر تدبير من يدفنها، لأن جموع الناس ستفر بعيدا عن المدن، وعندما يشمل الفرار العاملين في المستشفيات والخدمة المدنية والشرطة لن تكون هناك فرصة لإنقاذ أي مصاب بالوباء، وستنقطع المياه والكهرباء ولن تجد الحرائق من يطفئها. ومع انحسار

الوباء الذي يفقد فيروسه ضراوته مع ارتفاع درجة الحرارة في الربيع، ستخضر الأشجار في مدن خالية من البشر لا تُحلِّق في سمائها سوى الغربان، ولا تجوب شوارعها غير الكلاب الضالة والجرذان التي ستوحش متضخمة بوفرة الغذاء المتاح لها من جثث البشر والطيور!

كنا قد وصلنا في تلك التسرية السوداء إلى مرحلة احتمال أن تنتشر الجائحة عبر القارات وتعصف بالعالم كله، فتنقرض البشرية ويُقفِر كوكب الأرض. ولم ننتبه إلا والسيارة تهدئ من سرعتها وتحيد محاذية الرصيف ثم تتوقف. وبملامح ميت يستيقظ من موته التفت السائق نحونا سائلا فيما يشبه الرجاء «اللي بتقولوه دا صحيح يا أساتذة.. يعني الدنيا خلاص؟». وسمعت صوتي يجيبه نابسا بوجل «ممكن. احتمال». وإذا بالرجل يستقيم في جلسته ويرفع يديه ووجهه متضرعا بحرقة «يا ريت. يا رب. والنبي يا رب».

عادت السيارة إلى الحركة فيما التزمتُ أنا وصديقي الصمت، بينما كان الرجل يتمتم في خفوت «خلينا نرتاح بقى. خلينا نرتاح» رددها أكثر من مرة ثم انضم بسكوته لسكوتنا. لكن ما أن دخلنا ميدان الرماية حتى ندت عنِّي وعن صديقي صيحة عدم تصديق مشتركة لما نراه أمامنا: «مش معقول»!

كان الميدان يضطرب بحشود من البشر لابسي كمامات مختلفة، بعضها مجرد مزق من قماش الملابس القديمة، يحملون دواجن ميتة أو مُحتضِرة ويتجهون بها مسرعين إلى فضاء ملاعب الجولف التابعة لفندق «أوبروي» في سفح الهرم الأكبر. وكان الميدان يموج بأسراب من الدجاج والبط والأوز الطليقة كلها والمتخبطة في

حركتها. وفهمنا أن الناس الهلعين قد أتوا بدواجنهم من المناطق العشوائية والريفية القريبة ليتخلصوا منها في المكان الفاخر الذي لم يكن يعنى لهم في هذه الفوضى غير مجرد أرض فضاء متسعة.

تحول محيط الفندق التاريخي وسفح الهرم الأكبر إلى مكب للطيور المُنذِرة بالوباء. وكانت الدواجن التي لم تفقد عافيتها تتسرب خارجة من هذا المكب وتفيض على الميدان في هياج وتلاطُم. وعندما مرَّ سرب من أوز شارد أمامنا فوجئنا بالسيارة تتوقف، وإذا بالسائق المومياء قد دبت فيه عافية بارقة فهبط من السيارة بسرعة وراح يطارد الأوز الذي يفر أمامه مرفرفا صائحا، ثم ارتمى الرجل على أقرب وزة، ونهض بها أسيرة في حضنه!

تابعناه بانشداه وهو يستدير بهمة ويضع الوزة في شنطة السيارة، ثم ركب وحرك بأصابعه العظمية المسودة عصا الفتيس لننطلق، فيما راح يتحدث ضاحكا دون أن يلتفت كأنه عاد يكلم نفسه: «بقالي أربعين سنة مادُقتش الوز. نعملها مشوية في الفرن والنار بتموِّت أجدعها مرض. نتبسط شوية في عمرنا وآهو احنا ميتين ميتين». وكان انشراحه لا يتناسب مع ضحكته الميكانيكة التي كسَّرت الجلد المعتم اليابس حول فمه وتحت عينيه. ضحكة ميت حي!

* * *

في شارع الهرم ونحن نتجه صوب ميدان الجيزة التفت إلينا السائق ببسمة أرادها متوددة برغم تهشمها. وسمعناه يستأذن «لا مؤاخذه يا أساتذة أوصَّل الأمانة وهيه صاحية». وانعطف إلى شارع ضيق يوغل في تلافيف «العمرانية». ومع تقافز السيارة المتهالكة

ووعورة الطرق الترابية أخذت الأبراج السكنية المتلاصقة فجة الألوان تظهر بين كومات الزبالة وبرك مياه الصرف الطافحة. بعدها توالت البيوت التي راحت تتضاءل وتقصر حتى صرنا بين ركام مساكن أقرب إلى العشش وإن كانت مبنية بالطوب ومن طابقين وأحيانا ثلاثة، يحف بها ما تبقى من أرض زراعية تظهر في جنوبها الغربي أطياف الأهرام الثلاثة. وتحت أحد البيوت العشش توقفت السيارة، ونزل السائق فأخرج الوزة التي شرعت في الصياح بضجة ملفتة تفتحت لها النوافذ المتقاربة والشرفات التي تشبه علبا معلقة يكاد يلامس بعضها بعضا. ومن شرفة البيت الذي توقفنا تحته أطلت فتاة مفاجئة الجمال بعينين خضراوين واسعتين شاردتين في حنو. ثم غابت داخلة فيما بدا السائق يصعد إليها بالوزة الصادحة.

كنا قد نزلنا من السيارة نتأمل المكان متعجبين من كمية البشر الذين أطلوا من الشرفات والنوافذ وكان بعضهم يتدفق من الأبواب الضئيلة في فضول. رجال وشبان وصبية متعطلون. اقترب واحد منهم يرتدي بيجامة كالحة وينتعل شبشب بلاستيك متشقق ويدخن عقب سيجارة. ودون أن نسأله بادرنا: «أصل سيِّد موميا بيحب بنته قوي وهيا كفيفة ومالهاش غيره». «موميا؟» نطقناها أنا وصديقي في لحظة اندهاش واحدة، واستطرد المتطفل: «آه موميا. أصله مات فعلا لكن في خرجته من البيت سمع صويت بنته قام منفوض وخرج من الكفن». ولم يكمل محدثنا إذ اختفي فور أن أحس بالسائق يهبط إلينا لنخرج إلى الدنيا، شارع الهرم من جديد.

* * *

لم أنس «سيد موميا» ابدا، بل سعيت لمعاينة أسطورة وجوده «على الواقع». لكنني تهت في تلافيف قاع العمرانية أكثر من مرة حتى زهدت في السعى. لكن في اليوم الثاني من انتخابات مجلس الشعب الأخيرة فوجئت بسيارته التي يصعب نسيانها وهي تحمل شعار أحد الأحزاب «الدينية» وتمضي في جلبة بشارع فيصل مكتظة بسيدات بسيطات وضح أنه ينقلهن إلى دوائرهن الانتخابية للتصويت مخافة الغرامة. وكان الميكروفون الذي تحمله السيارة يذيع صراخا أجشا لرجل يخطب ووراءه أصوات تهتف «علِّم علِّم ع الإسلام». ولما كانت السيارة مبطئة فقد حاذيت نافذة سائقها الذي ازداد جفاف وإعتام جلده، وكان يدخن في نهم سيجارة معلوكة وملتوية، ووجدتني أمازحه «اللـه؟! مش التدخين مكروه يا عم سيد». ومد رأسه هامسا وهو يغمز بإحدى عينيه «آهو كله دخان في دخان». ولاحظت أن جفن عينه الغامزة انطبق متشنجا، فسارع يرفعه بأصابعه، وخطر لي أن الجفن من فرط ترققه وجفافه يمكن أن يتفتت وينتثر غبارا.

* * *

وعلى ذِكر الغبار، يُلحُّ عليَّ مع نهاية هذه القصة، وبحكم التداعي، ذِكر محتوى بضعة أسطر من كتاب هانا هولمز «الحياة الخفية للغبار»، تفيد بأن كثيرا من السفن المتجهة إلى أمريكا في القرن ١٨ كانت تُهرِّب في قيعانها أكداسا من مومياوات قدماء المصريين، لتُطحن وتُباع كإكسير سحري لاستعادة الشباب، واكتساب القوة الخارقة!

شجرة الباوباب

لأن الرجل بعد تقاعده لم يكف عن عادة الاستيقاظ مبكرا، فإنه كان يبدأ يومه بلقمة صغيرة يُعِدُّها لنفسه مع كوب الشاي يحتسيه بينما يقرأ أخبار مصر عبر مواقع الانترنت، لهذا عرف ببدء فض اعتصام النهضة في حينه، ولأنه يسكن على مقربة أمتار من المكان، قرر النزول لمتابعة الحدث الخطير فضولا واستثارة، خاصة وقد كانت البدايات التي تُذاع على الهواء عبر البث الحي لإحدى الفضائيات المنقولة على الشبكة، توحي بأن الفض الذي تمنّى أن يتم سلميا سيكون سلميا، فقد رأى عبر البث سيارات شرطة حديثة مزودة بميكروفونات قوية وصافية الصوت، توجه نداءات للمعتصمين بفض الاعتصام مع ضمان خروجهم الآمن إلى بيوتهم، وكانت تُحدِّد الطرق التي يمكن أن يسلكها الخارجون من الميدان لضمان أمنهم وسلامتهم مع التعهد بعدم ملاحقتهم.

كان مدخل الميدان من شارع مراد والمحصور بين سور حديقة الحيوان وحديقة الأورمان عند تمثال نهضة مصر مقطوعا ببوابة خشبية كبيرة من بوابات السرادقات أقامها المعتصمون، تعلوها لافتة عريضة تمجد مرسي وتطالب بعودته للرئاسة، وتحتها قليلا إلى الوراء كان تمثال نهضة مصر رابضا وقد تشوه بكتابات تسب قيادة الجيش وتتهم ثورة ملايين ٣٠ يونيو بأنهم خونة وعبيد عسكر ولاعقو بيادة، إضافة إلى عبارات سباب بعضها فاحش يجاور آيات قرآنية وأحاديث نبوية، ومن وراء ذلك بدت هناك تباب من الأجولة المملوءة بالرمل تظاهرها متاريس خفيضة مبنية بالطوب والأسمنت

أقامها المعتصمون التابعون للإخوان والمتعاطفون معهم، ولم تكن الخيام واللافتات تسمح برؤية العمق فيما وراء ذلك.

ظلت سيارات الشرطة المزودة بمكبرات الصوت ولما يقارب ساعة ونصف تذيع نداءاتها للمعتصمين بالخروج وتؤكد ضمان سلامتهم وعدم ملاحقتهم حال عودتهم إلى بيوتهم، وكان الجو مشحونا بتوتر راعش في صباح باكر بدا صافيا ومشوبا بشبورة خفيفة ونسمة مبتردة قليلا برغم صيف أغسطس، وعندما حاول الرجل أن يقترب من فوهة الميدان أمام الباب الرئيسي لحديقة الحيوان كي يرى ما يختفي في العمق، رده ضابط شرطة شاب إلى الخلف «حفاظا على سلامتك»، وقد تراجع بالفعل نحو مطلع كوبري الجامعة الذي كان يعتليه مجموعة من المواطنين والصحافيين وكاميرات التلفزيون، مما بدا معه أن الشرطة واثقة من أن الفض لن يشهد تجاوزات ولن تُراق فيه دماء، وقد انتقلت هذه الثقة إلى الرجل والذين تجمعوا عند مدخل الكوبري، ومع ذلك ظل التوتر عالقا بفضاء هذا الصباح الباكر خفيف الضباب.

كررت مكبرات صوت الشرطة نداءاتها وأنذرت بأن الفض سيبدأ بعد قليل ثم سادت دقائق صمت امتدت طويلا كما بدت للرجل وللناس من حوله، ثم هرولت جرافة مدرعة تحطم قوائم بوابة السرادق فهوت وسقطت معها متغضنةً صورة مرسي وشعارات تمجيده، وراح الجنود يُزيحون جانبا عروق خشبها وقماش خيمتها ولافتاتها جانبا ليفسحو دخول الجرافة المدرعة التي أطاحت بصف من أجولة الرمل في سرعة غير متوقعة وبالسرعة ذاتها هدمت ونَحَّت أنقاض المتراس المبني بالطوب والأسمنت، وانفتح الطريق إلى داخل ميدان الاعتصام فتقدمت عربة مدرعة

من مدرعات الشرطة زيتية اللون لدخول الاعتصام بتمهل يحف بجوانبها الخلفية مجموعة من جنود الأمن المركزي في ثيابهم الرسمية السوداء يمتشقون هراوات مطاطية قصيرة ويحتمون بدروع شفافة من البلاستيك يرفعونها أمام وجوههم والصدور. وبغتة دوَّى صوت رصاص.

كان هذا صوت الرصاصات الأولـى التي لم يتبين الرجل والمتجمعون معه مصدرها ولا من أطلقها، لكن سرعان ما ظهرت مؤشرات للإجابة على هذا السؤال دون تصريح، فقد أقبل من خلف الطريق الذي فتحته الجرافة مجموعة من الجنود في ملابسهم السوداء يحملون زميلا لهم مصابا إصابة بدا أنها تُعجزه عن الوقوف، ثم تبين للرجل الذي كان طبيبا أن الإصابة قاتلة، أو على الأقل ستترك هذا الجندي الشاب معاقا مدى الحياة، وعلى كثرة ما رأى هذا الطبيب من مصابين ودماء تنزف من أجسامهم على امتداد أربعين عاما في عمله الطبي، راعه أن إصابة هذا المجند الشاب تنزف كأن صنبور حديقة قد انفتح في جسمه و أخذ يدفق بكل قوة، حاول الاقتراب للمساعدة قائلا للضباط الذين منعوه أنه طبيب ويريد أن يساعد، فأخبروه وقد بدأ يظهر عليهم التوتر أن الإسعاف قادم في خلال دقائق، وكان في قرارة قلبه المعصور بهول النزيف يدرك أن لا أمل كبير في إنقاذ هذا الشاب، فصنبور الدم كان يزخ باتجاه الأرض من زاوية مقعدته وهو محمول مرابعةً بين ايدي زملائه. ورجَّح الطبيب أن الرصاصة أو الرصاصات التي أصابته لا بد قد اخترقت الحوض وقطعت شريانا كبير من تفرعي الأورطى عند العصعص. ثم بدا أن الصباح يشتعل.

تدفقت مصفحات الشرطة وأرتال الجنود إلى عمق الاعتصام

وسُمِعت أصوات طلقات أفاد الصحفيون أنها تنطلق من داخل حديقة الأورمان، وتردد أن هناك مسلحين من المعتصمين كانوا يتمترسون بالحديقة وأن الشرطة تبادلهم إطلاق النار، ولم تمض أكثر من نصف ساعة حتى سُمح للصحفيين بالدخول ولكن إلى عمق معين، ودخل الرجل معهم فرأى الميدان الذي كان يغص بالمعتصمين خاليا والخيام والسرادقات التي أقاموها تشتعل بشكل جماعي كأن أصحابها أشعلوها عند فرارهم، فأفراد الشرطة الذين دخلوا الميدان لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى أطراف تفرعاته في شارع الجامعة أمام كلية الفنون التطبيقية من ناحية وفي اتجاه ميدان الجيزة من ناحية أخرى، حيث كانت النيران تكمل التهام الخيام هناك. وفي وسط الرصيف الفاصل بين نهري شارع الميدان كان هناك ضباط وجنود يحصون ما عثروا عليه من أسلحة وذخائر تركها بعض المعتصمين خلفهم، كمية كبيرة من الرصاص وبنادق مختلفة الأشكال بعضها بدائي باستثناء بندقيتين آليتين قيل أنهما كانا بين يدي من بادروا بإطلاق النار من داخل الحديقة. وأراد الرجل أن يتفقد الحديقة التي طالما اعتبر أن سكناه بقربها جاءه نوعا من المكافأة القدرية لسعيه الطويل الشاق في الحياة، فأسرع بدخولها مع أول الداخلين، ولفت نظره أن هناك تجمعا يحيط بشجرة الباوباب عند السور الجنوبي للحديقة قرب بِركة بوص أشجار البامبو العملاقة التي لطالما سرَّه طفو زهور لوتس خلَّابة الزرقة على سطحها الساكن، لم تعد موجودة.

تبين الرجل أن المتحلقين حول شجرة الباوباب كانوا رسميين وإن في ثياب مدنية، أفراد من الشرطة والنيابة يعاينون المكان الذي يرجحون أن الرصاصات الأولى التي اخترقت وحطمت حوض

المجند في بداية الاقتحام قد انطلقت منه، فقد كانت الشجرة مفغورة بعدة فتحات صنعتها رصاصات الشرطة التي كانت ترد على نيران واحد أو أكثر من المعتصمين المسلحين اتخذوا من جذعها الاسطواني المنتفخ ساترا لنيرانهم وحائلا دون وصول الطلقات الجوابية إليهم، غير مدركين أن هذه الشجرة لا تصد رصاصا ولا ترد حتى رش الخرطوش، فشكلها الذي يشبه زجاجة برميلية عملاقة بعنق مستدق وقليل من الأفرع شبه العارية تتوج هامتها، ليست إلا زجاجة طبيعية عملاقة لاختزان الماء، فلبُّها الإسفنجي يؤهلها لتشرُّب واختزان أكبر كمية من الماء في قلبها، فهي من أشجار جنوب الصحراء الإفريقية شديدة الجفاف التي لا يزورها المطر إلا لِماما، كما حلم عابر، وتحوله هذه الشجرة إلى ذُخر للحياة في سنين الجفاف التي تطول هناك. فهي مستودع الأمن المائي لنفسها كما لقبائل البانتو التي لا يزال أفرادها يعيشون شبه عراه معتمدين على الصيد وجمع الثمار في هذه البراري القاحلة، شجرة حكيمة وحانية ورؤوم ومع ذلك لم يشفع هذا لها عند بعض غلاة البشر حتى من بين «زعماء» هذه القبائل البدائية، كانوا يقرون غُرفا في بطون جذوعها الضخمة، ويقيمون على مداخلها أبوابا من الحديد لاتخاذها سجونا لاحتجاز مُناوئي هؤلاء الزعماء أو مقترفي الذنوب في حق القبيلة وأحيانا كانوا يودعون داخلها المجانين.

الطبيب الذي جعلته أشجار حديقة الأورمان مولعا بسيرة هذه الكائنات السرمدية العملاقة، الساكنة والحانية والمعطاءة في كل أحوالها، حتى لو كانت أشجارا لا تثمر إلا الظل ولا تشكل إلا مجاثم

تستريح عليها العصافير، ظل يتجول بالقرب من شجرة الباوباب حتى ينصرف هؤلاء الرجال الرسميين في الثياب المدنية، وراعه أن هذا الجزء من الحديقة بقرب الفتحة التي فغرها المعتصمون في السور كان يضج برائحة مرحاض مكشوف برغم ابتنائهم بعض الحواجز التي أقاموها من الطوب والأسمنت في المكان لقضاء حوائجهم على امتداد خمسة وأربعين يوما. ولما اقترب أخيرا من شجرة الباوباب راح يحدق في عمق الثقوب التي حفرتها الرصاصات في اللحاء واللُب. وتبين له أن الثقوب لم تكن في جانب واحد من الجذع بل من جانبين يقابل كل منهما الآخر. مد يده يتلمس حواف الثقوب فأحس بسخونة تنز منها طازجة لا تزال، أثر مروق الرصاصات في لحمها الطري الهش، ثم انتبه إلى أن سائلا شفافا خفيفا يسيل من هذه الثقوب، كانت الباوباب تنزف نسغها والماء الذي ربما ظلت تختزنه منذ تسعين عاما تحسُبا للأيام العطاش كما تعوَّد أسلافها وكما هو مدون في برنامجها الوراثي غير آبهة بأنها في اغترابها عن أوطانها البعيدة تعيش في أرض لا تعرف العطش. فهل كان هذا النسغ هو دماء هذه الشجرة؟ هل ستموت لو فقدت كل نسغها عبر هذه الثقوب؟ أسئلة راحت تترى بتأثر في خاطر الرجل الذي لطالما كان مفتونا بسرمدية الأشجار وهو يكتشف في لحظة فارقة أن البشر العابرين يمكنهم أن يقصفوا عنق هذه السرمدية في لحظات. وجعله تفكيره على هذا النحو يتذكر الشاب المُجنَّد الذي شخب دمه بفعل تلك الرصاصات الأولى، هي على الأغلب كانت الرصاصات الأولى. هل سيمكن إنقاذه؟

ننتظر، ونراقب

شعر باهتزاز المحمول في جيبه. كان قد ضبطه على وضع «صامت»، ونسي صمته. ليست هناك مكالمات مهمة الآن، لكن هذا الرقم غير مألوف. ذكر المتحدث اسمه فأخبره أنه هو، وعرف أن المتحدث سكرتير عيادة الأستاذ الدكتور هشام توفيق، وأن الطبيب يعتذر لإلغاء الحجوزات لاضطراره إلى سفر خارجي مفاجئ. فسأل المتحدث متى يعود، ليجيبه «بعد أسبوعين». ووجد نفسه مندهشا من نفسه وهو يقول له من دون تردد «إذن احجز لي بعد أسبوعين».

«بعد أسبوعين»! قالها ببساطة. ولو أنها قيلت له قبل ثلاثة أيام فقط لكان يصيح في جنون: «أسبوعين لا لا مستحيل». ولا حتى يومين كان يستطيع أن ينتظرهما. أغلق المحمول ووضعه في جيبه من دون أن يغير الوضع صامتا. فمنذ يومين وهو لا يهتم بأي مكالمات في كل هذه الدنيا غير مكالماتها ومكالمات الأولاد. ولو أن ما حدث قبل الأمس كان مختلفا في نتيجته لبدا مختلفا تماما عما هو عليه الآن. الآن بلغ الشاطئ بعد مكابدة قاسية في بحر متلاطم امتدت لثلاثة أشهر. وعلى هذا الشاطئ وجدها في انتظاره. كأنه يكتشفها من جديد بعد هذه الرحلة الصاخبة: وارفةً، عطرةً، وعطوفا، وهو يرتمي منهكا في ظلها الرقيق الناعم. يغمض عينيه لا ليغفو بل ليستجمع ذروة الصحو في حضنها، موقنا أن أحلاما رائعة، عارمة، ستواتيه.

* * *

منذ ثلاثة أشهر وحياته تتأرجح، بل وصلت بتأرجحها لدرجة

الترنح. وكانت هبَّة الريح المفاجئة قد عصفت به عندما عن له أن يقوم بهذا التحليل «الروتيني». فكرة لم يعرها أي اهتمام من قبل، لكنها في لحظة راحة وإجازة من العمل واتته بنعومة وبلا اكتراث، لماذا لا؟ إنه تحليل «عادي» ينبغى أن يقوم به كل من تجاوز الخمسين. وخلال سبع سنوات من تجاوزه الخمسين لم يفكر أبدا في إجراء أي من هذه التحاليل والمراجعات التي يوصون بها في هذه السن. لم يكن في حاجة إلى أي «شيك أب» يطمئن به على صحته، فصحته ظلت جيدة، بل أكثر من جيدة. يبدو بمظهره وجوهره أصغر من عمره بعشرة أعوام على الأقل، لا سكَّر، لا ضغط، حتى نظارة القراءة لم يحتج إليها إلا في الخامسة والخمسين، وبثلاثة أرباع الدرجة فقط ليقرأ بها الحروف والأرقام الدقيقة جدا على مغلفات الأطعمة وعلب المشتريات. الكتب ما زال يقرؤها بلا نظارة، والتلفزيون والمسرح والسينما يتابعهما بلا نظارة أيضا. وظلت حيويته فائقة حتى كانت زوجته تلح عليه ضاحكة مداعبة، وربما شاكية بلطف: «إمتى تكبر؟».

لكنه فجأة كبر.

تداعى عشرين سنة على الأقل أكبر من عمره عندما ذهب ليتسلم نتيجة ذلك التحليل. لم يستوعب دلالة الرقم لأنه لا يتجاوز الحد الطبيعي إلا بقدر ضئيل. لكن سكرتيرة المعمل عندما ذكر لها اسمه ليحصل على النتيجة استمهلته طالبة منه أن ينتظر لأن الدكتور رئيس المختبر يود أن يحادثه. وعندما لمح الجهد الذي يبذله رئيس المعمل ليبدو حديثه مُطَمْئنا بدأ الشك يتسرب إلى نفسه. قال له

الرجل إن النتيجة غير مخيفة لكن يُستحسن مراجعة مختص. شكره وهو لا يعي بأي كلمات شَكَره وكاد يتعثر على الدرج الهابط من المختبر إلى الشارع بينما كان يعاود قراءة النتيجة ويقارنها بالحد «الطبيعي». وكان كالسائر في نومه وهو يبحث عن أقرب مقهى للإنترنت كأنه لم يعرف هذه الشوارع من قبل، وكأنه قد أُلقي به في مدينة غريبة وهو يبحث عن دليل.

فتح على الجوجول وكتب اسم التحليل وأعطى إشارة البحث. ومن القائمة المنسدلة نقر على الاسم في موقع مستشفي «مايو كلينيك»، وجرت عيناه تلاحقان السطور وتبحث عن الأرقام. وكانت النتيجة: «ارتفاع مستوى التحليل يشير إلى احتمال وجود خلايا سرطانية ومزيد من الارتفاع يرتبط بدرجة انتشار السرطان والحالة تتطلب مزيدا من الفحوص والتحليلات لتوكيد وجود السرطان أو نفيه».

السرطان، راح يبحث عنه على شبكة الإنترنت، يمسك به ويتعقبه من موقع إلى موقع، من مقال إلى مقال، بدا شيئا بشعا بقدر ما يُحدثه في الجسد البشري من بشاعة. وأخذ يتمثل بشاعته بينما احتمال وجوده داخل جسده يتراءى له دانيا، بشاعة أقصى ما يكرهه في هذا العالم، نوع من السلوك الإجرامي لا يماثله إلا سلوك الغزاة والطغاة، حفنة من شذاذ الآفاق يفرضون وجودهم الشره على الكثرة من الودعاء والمسالمين والذين يمشون على الأرض هونا، وفي شراهة توسعهم ينشرون أتباعا يماثلونهم في العدوانية والنهم يضربون في كل اتجاه للسيطرة على بقاع جديدة والطغيان على بشر آخرين، خلية

أو بضع خلايا من بين ملايين الخلايا التي تنقسم كل يوم لتجدد وترمم ما يبلى من نسيج حي كيما يواصل الحي حياته تمرق طامعة في الخلود الدميم، قلة ضئيلة من الخلايا الجانحة لا تقنع بأن تعيش ما يكفي لها من حياة ولا ترحب بإفساح مكانها لخلايا جديدة شابة، تطمع في البقاء بأي ثمن فتستنسخ من نفسها جحافل على هيئتها، تتحول إلى كتلة ورمية تضغط وتسحق وتستعبد ما حولها، تريد لنفسها الغذاء كله، والأوكسجين كله، والفضاء كله، فتقضي على الخلايا الفاعلة في العضو المصاب لصالح وجودها المتطفل الذي يكتفي بالأخذ ولا يعرف العطاء. يتوحش الورم ويتوسع وينتشر، يريد أن يحتل الجسد كله وهو يعمى عن أن إهلاكه لهذا الجسد فيه هلاكه. وفي هلاكه لا تموت خلاياه الخبيثة ذلك الموت الجميل الذي ترحل به الخلايا السوية، الموت الذي تتقبله الخلية الطبيعية برضا جميل وتنحني فيه لمشيئة المقدر لها من العمر الوديع، ترقص رقصة جميلة وهي تتفتت ثم تستسلم كما في نوم حالم للذوبان في محيطها الحبيب محاطة باليافعين والشباب من الخلايا الطالعة من السلالة نفسها. خلايا السرطان لا تموت هذا الموت الجميل، بل تظل تعاند في البقاء المجرم وتكابر حتى تكتظ بإجرامها وغطرستها ولا تجد ما يمدها بالمزيد من الطاقة بعد أن أهلكت الجسد كله، تموت نتنة داخل نفسها ثم تنفجر، وتنثر في فضاء الموت المعتم نفايات تفجرها، شيء لا أقبح منه ولا أقذر!

* * *

رفع رأسه يُسرِّح بصره مع انسياب النيل الذي وجد نفسه يسير

على رصيف كورنيشه من دون أن يحس بالانشراح والبهجة التي طالما بثها مرأى النيل في نفسه. كان يشعر برعب أن يكون هناك احتمال لوجود مثل هذا الوحش البشع في داخله، السرطان، لماذا أسموه سرطانا؟ ربما ليوحوا بشراسة نهشه عبر مخالب وكلابات تخرج من محيطه كله. مجاز مستنبط من هيئة سرطانات البر والبحر، لكن لا، هذه سرطانات مسكينة، ومع ذلك أيقن أنه لن يأكل الكابوريا بعد اليوم. ستُجسِّد له مخالبها وكلابتها شراسة القاتل الذي يتربص به من داخله. هل يمكن أن يكون هناك هذا القاتل حقا؟ هل يمضي وهو يحمل قاتلا بهذه الوضاعة في داخله؟

وجد ذهنه مُشتتا حتى إنه تحير متسائلا عما إذا كان حاسب صاحب مقهى الإنترنت أم لا، ولا يعرف إن كان ترك صفحة الإنترنت مفتوحة على ما كان يقرؤه أم أغلقها، ولا يعرف كيف ولماذا قادته قدماه ليجلس أخيرا في هذا المكان بالذات: كوفي شوب مفتوح على شاطئ النيل، مكان فسيح في ظلال أشجار وارفة وبين جنبات خضرة ممدودة. وكان وحده في كل هذا المدى من الظلال والخضرة يطل على مياه النيل بقربه، يرى ارتعاش مويجاتها المتهادية على السطح نحو الجنوب بينما يدرك أن التيار تحت السطح يتجه شمالا بلا شك. هادئ ومفعم بالأسرار هو النيل، وفي رقرقته شجن تتمايل به نسائم خفيفة حنون، هذا ما يريده في هذه اللحظة. طلب شايا في «مج» زجاجي، وراح يرتشف قرمزية الشاي الصافية الساخنة وهو يسرح البصر في المدى فوق النهر. إذن هي النهاية، أو بداية النهاية. وشعر بهدوء غريب أقرب إلى الهمود وهو

يُقلّب في ذهنه صور المعاناة التي تعصف بمرضى السرطان في مراحله الأخيرة. وقرر أن ما سيصر عليه أكثر من أي شيء آخر هو ألا «يتبهدل» أو يهان. لن يدخل في جراحات معقدة، ولن يشتري ثمالة الحياة بما ينبغي أن يتركه لأولاده. أولاده.. وشعر بقبضة باردة تعتصر قلبه ببطء، ببطء وحزن. لا لن ينفق ما يدخره على علاج ميئوس من نتيجته، سيصر فقط على ألا يتألم، المزيد والمزيد من قاتلات الألم.

كيف سيكون الألم؟

* * *

علاج لمدة ثلاثة أشهر يزيل الأسباب الأخرى المحتملة ـ غير السرطانية ـ لارتفاع مؤشر التحليل، ثم إعادة التحليل بعد فترة العلاج. ثلاثة أشهر من التقدم باتجاه ينفي وجود السرطان، لكنه تقدم مواز باتجاه تأكيد وجوده. ثلاثة أشهر بات يرى وجوده خلالها في ضوء جديد. وجوده كفرد، كرب أسره، كزوج، كصديق لأصدقاء، وقريب لأقارب. وكان كل إجراء طبي في هذه الرحلة يقربه من الاحتمال المخيف. تحاليل الدم، الفحص الإكلينيكي لدى الطبيب، العلاج الذي يُعطى للواقفين في المنطقة الرمادية بين المرض الخطير واللامرض، إعادة تحاليل الدم مرة أخرى والمؤشر الذي لم ينخفض به علاج المنطقة الرمادية، التصوير الطبي، وأخيرا أخذ عينات دقيقة من لحمه لتحليل خلاياها. مشوار طويل كانت كل خطوة فيه تقود إلى زيادة رجحان كفة السرطان. وكان في كل ما سبق المرحلة الأخيرة يفكر في

السرطان كطاغية وغاز ومعتد جاء ليقتله، فلا بد من قتاله وقتله. وكان مستنفرا وكارها لهذا القاتل المتخفي بين خلاياه. لكنه في المرحلة الأخيرة بعد أخذ عينات من أنسجته لفحص خلاياها تحول تفكيره تماما. وكان بشكل نفسي ينتظر السرطان ولا يرفضه. ثلاثة أيام وهو يفكر في الخلايا الجانحة بشكل معاكس تماما للطريقة التي فكر بها من قبل. بات يستشعر العطف على هذه الخلايا ويشفق على عربدتها المدمرة ويمنحها التبرير. لم يعد ينظر إليها بعداء بل بشكل أقرب إلى الأسى والعطف. صاغها تفكيره الجديد في صورة أفيال صغيرة تعربد في الأدغال فهي أدعى إلى التعاطف. استعار الصورة من حادثة قرأها عن أفيال اكتشف المشرفون بمحمية كروجر بجنوب إفريقيا أنها وراء ألوان همجية من التخريب دمرت الكثير من الأشجار وقتلت أو أصابت بعض الحيوانات المسالمة الصغيرة. وعند تقصيهم لما وراء هذه الأفيال الصغيرة المعربدة تبين لهم أن هذه الأفيال هي أفيال يتيمة قتل الصيادون اللصوص آباءها وأمهاتها للحصول على عاج أنيابها، وأنقذها حراس البراري ضمن ما ما تبقى بعد جوائح الصيد الجائر التي كادت تقضي على كل الأفيال في الشمال. أحضروها يتيمة غِرَّة وأطلقوها في المحمية الآمنة. لم تعش هذه الأفيال في كنف أسر تضم راشدين ومسنين يلقنونها آداب الحياة وقداسة الموت. لم يكن لديها أبدا كبير. وما كادت حمية اليفاع تسخن في دمائها وتفور في أجسامها النامية حتى اندفعت في وهج هذه الطاقة. تحطم أشجارا بلا غاية وتسحق حُمُرا مخططة

وغزلانا في طريقها. وتدخل مع خراتيت صغيرة في معارك دامية بلا مبرر. وكانت تقوم بكل هذه العربدة في شكل عصابة «زعران» تتنقل بعربدتها من مكان إلى مكان باحثة عن ضحايا جُدد تتسلَّى بهم. كانوا أفيالا صغيرة غريرة تستحق التفهم والتعاطف أكثر من الزجر والردع والعقاب. وهو، بات يفكر في الخلايا السرطانية التي رجح أن يكشف عنها تحليل عيناته «الباثولوجي» بالشكل نفسه. رآها في نهاية الأمر خلايا من خلاياه. خلايا في زحام انقسام الخلايا داخل جسده جنحت وراحت وهي مغرورة بعنفوانها ووهم طول البقاء تعربد. تُضاعِف نفسها فيتكون منها ورم أو عصابة تزاحم وتضغط وتسحق ما يحيط بها من خلايا عادية. سلوك جانح استدعى منه إشفاقا وعطفا وَدَّ معهما لو يمد أصابعه بطريقة خارقة ما ويهدهد هياج تلك الخلايا. إنها في النهاية خلاياه. بعضٌ من خلاياه. وكان هادئا وراضيا وحزينا قليلا وهو في الطريق لتسلم نتيجة الفحص الباثولوجي الذي تهيأ لفهم نتيجته بنفسه.

كان قد قرأ كثيرا في الموضوع حتى يستطيع الوقوف بالضبط على نتيجة الفحص الباثولوجي. وشعر بدوار وزيغ بصري وهو يقرأ ويصل إلى النتيجة: «لا وجود لخلايا سرطانية ولا خلايا مشكوك فيها». وقفزت قدماه ترتفعان عن الأرض وذراعاه تنفتحان للأعالي وصيحة فرح صبيانية تنطلق من غياهب صدره. طوفان فرح اجتاح به استقبال معمل التحليل دائم الكآبة. ووجد نفسه بلا تحفظ يحتضن زوجته التي أصرت على مصاحبته في اللحظة

الحرجة. وهي الخجول المتحفظة. تركت نفسها له يحملها من وسطها ويدور بها في المكان كبنت صغيرة. حتى الذين تلقوا تقارير مشئومة غسلت ملامحهم هجمة الفرح ففرحوا وابتسموا له ولها. لم يحتمل الانتظار الطويل للأسانسير لفرط ما كانت البهجة داخله تؤجج شوقه لشوارع الحياة المفتوحة. وعلى الدرج الطويل الهابط من طابق المختبر العاشر وجد نفسه يمحو تماما تفكيره السابق في الأفيال الصغيرة المعربدة. لا، هذه الخلايا الشريرة ليست كذلك. إنها خلايا عجوز متصابية تريد أن تحتكر الحياة وهي تقتل كل ما عداها وعدا أتباعها. عصابة استبدادية تقهر جسدا بحاله لتعيش أكثر مما ينبغي ومما تستحق. كانت خطيئة أن يتعاطف معها أو يعطف عليها. سلوكها الإجرامي يجعلها غريما لمن توالدت من خلاياه. غريم لا بد من قتاله لأنه قاتل بطبيعته الجانحة منذ البداية وإن أجاد إخفاءها. وفي لحظة كراهية شديدة لبشاعة هذه الخلايا تفجر فيه شعور جارف بالحب تجاه زوجته. ليس حب رجل تعدى الخمسين لزوجته التي تصغره. بل حبٌ غضٌ لشاب استعاد نضارته في صحبة محبوبة صغيرة. حب دافق وعارم ويستطيع أن يكتفي من الدنيا بعناق المحبوب.

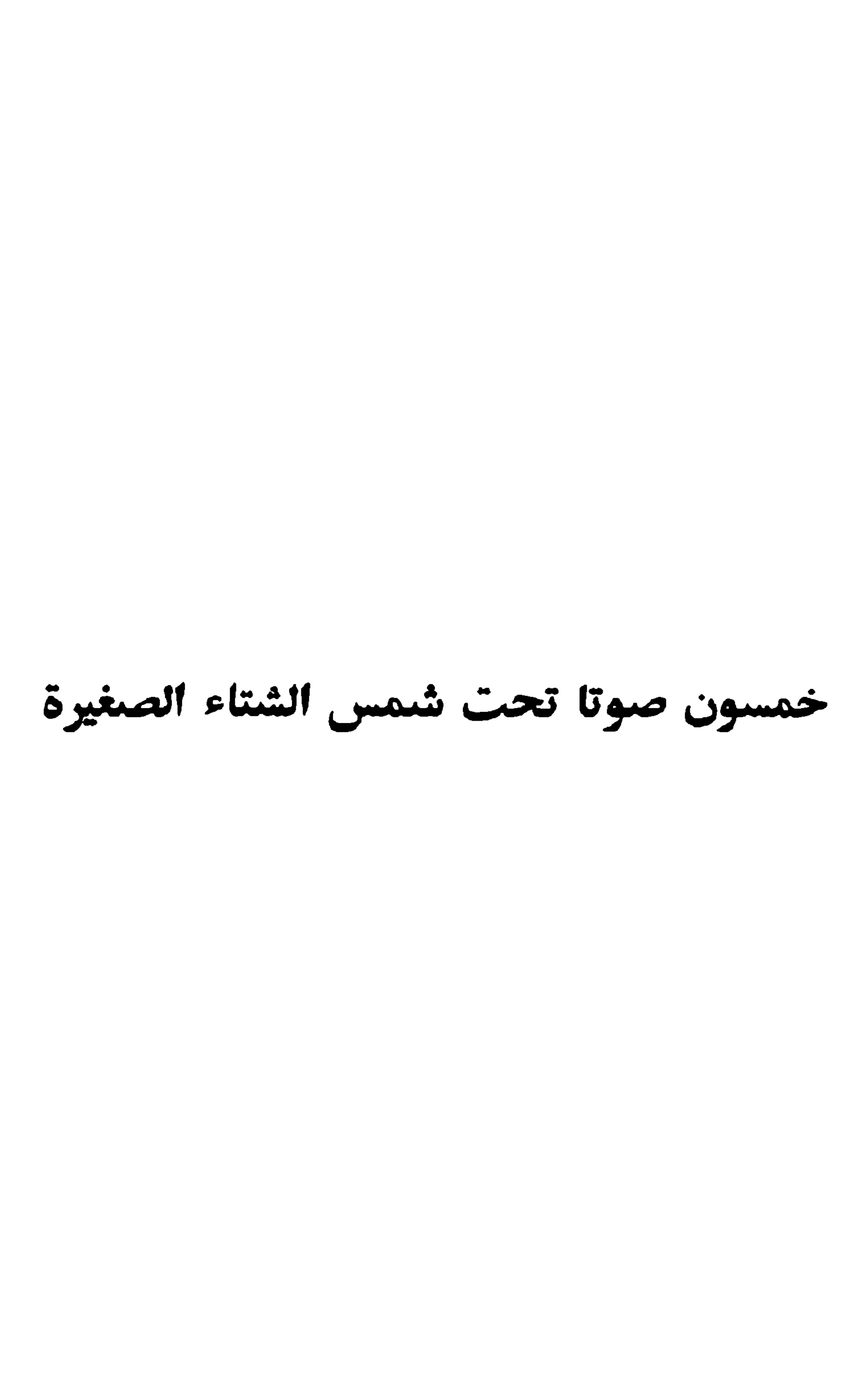
وعلى الدرج وسط زحام الصاعدين والهابطين، كان يتصرف بالضبط تصرف العشاق الصغار.. يختطف ضمة ويختلس قبلة. وهي ترجوه بدهشة وحبور: اعقل، الناس حوالينا. وكان يود أن يقول لها إنه لم يكن عاقلا أبدا كما هو الآن. لكن ابتهاجه كان يختزل كل الكلام في ابتسامة ونظرة حب ورغبة في أن يعب من

هواء الدنيا ما يروي ظمأه لكل هذه الحياة. وعندما أخبره سكرتير الطبيب المعالج أن طبيبه يعتذر له وأنه سيعود بعد أسبوعين ويترك له حرية أن يراجع طبيبا آخر لو أراد.. لم يُرد. بل وجد في هذين الأسبوعين فرصة لراحة يصخب فيها ويحب. كأنه بعد أن كبر ربع قرن في ثلاثة أشهر، عاد يصغر ربع قرن في لحظة.

* * *

ـ مبروك العينات كلها نظيفة.. ربما نحتاج لتكرار أخذ عينات للفحص بعد سنة إذا ارتفعت نتيجة التحليل. إجراء روتيني.

لم يكتب له طبيبه الذي عاده بعد أسبوعين أي أدوية، قال له إن المسألة لن تعدو كونها نوعا من الانتظار والمراقبة، خطّة متابعة روتينية لمن هم في هذه السن عنوانها Wait and Watch، ننتظر ونراقب. فلننتظر ونراقب. فسحة عام كامل من السلامة. فرصة عام كامل من الحب. أما إذا عاد «ذلك الملعون» فلن تعود إلا الكراهية له، الكراهية المسلحة بطاقة عام كامل من الحب.



خمسون صوتا تحت شمس الشتاء الصغيرة

كنا تسعة وأربعين عندما أنبئونا في الصباح الباكر أنهم سيفتحون الأبواب لنا. سيطلقوننا معا في الردهة بين الزنزانات عند الضحى. تملكنا فرح جنوني فصرنا نتصايح مثل الأطفال. نتنادى عبر نوافذ الزنزانات العالية المصفحة بالقضبان الحديدية، ونغني بشكلٍ مُهتاجٍ ومتداخل، غير مصطبرينَ مع تَوَفُّز حالة الطرب والترقب في دواخلنا. لكننا في النُّذُر الأولى قُبيل فتح الأبواب ران علينا سكون مطبق. سكون الارتياب في الوعد الذي بذلوه لنا مرات من دون أن يَصدِقوا، وسكون التاريخ الجاثم بين جنبات هذا المُعتقل المخفي في جوف القلعة العتيقة، بأسوارها القديمة الثقيلة العالية، وتواريخ المذابح في أحواشها، وانفجارات جنون السلاطين والأمراء والمماليك بها، واختفاء البشر في دهاليزها وسراديبها السرية. سكون الارتياب، وسكون ما انبعث في الفضاءات المعتمة لهذا الارتياب.

لقد مكثنا مائة وعشرين يوما معزولين فرادى منذ جاءوا بنا من بيوتنا بعد منتصف الليل، بعد خطاب الحاكم الذي قال فيه «إن الطريق إلى الديمقراطية هو مزيد من الديمقراطية». أودعونا منفردين في زنزانات هذا المُعتقل ولم يسمحوا لنا أبدا بالالتقاء معا. الطعام في غير أوقات إضرابنا عن تناوله كانوا يدخلونه إلى الزنزانات دون أن يفتحوا أكثر من باب في كل مرة، ودورة المياه كانوا لا يسمحون بغشيانها إلا لفرد واحد مخفورا بأحد الحراس، ولا يُخرِجون غيره إلا بعد انتهاء الأول من الدورة وعودته إلى

زنزانته وإغلاق الباب عليه. وعدا المرات النادرة التي كان الواحد منا يستطيع فيها أن يقتنص ثانية أو ثانيتين للإطلال من ثقب الباب ليتعرف على شكل أحد الزملاء المارين في الردهة، لم نكن غير أصوات لا أكثر. وعبثا حاولنا أن يرى بعضنا بعضنا في أثناء الذهاب إلى التحقيق أو العودة منه، لكن حتى هذه الفرصة لم تسنح لنا، فقد كانوا يسوقوننا إلى التحقيق منفردين، وفي عمق الليل!

صار الواحد منًا في ذلك المعزل البصري قادرا على تمييز أي من الآخرين بأوهى همهمة أو نحنحة أو سعلة أو آهة، حتى لو بدرت من زميل في آخر صف الزنزانات بالعنبر ذي الردهة المفتوحة على السماء، والتي كانت تبدد برياح شتائها القارس أكثر أصواتنا عندما نتعلق بأعتاب النوافذ العريضة ونتحادث أو نتهامس أو نغني من وراء قضبانها. مكثنا أربعة أشهر نتجاذب ونتنافر كأصوات. تكوَّنت صداقات حميمة وأُضمرت حساسيات على أساس من الأصوات لا أكثر. كنا تسعة وأربعين صوتا في تلك الصناديق المعتمة التي لا تنقشع عتمتها حتى في الظهيرة، ولم نكن ندري أن هناك ذلك الصوت الخمسين؟

في لحظات السكون الثقيلة الزاحفة نحو الضحى، الموعد المضروب لنا لبدء الفتح الجماعي لكل أبواب الزنزانات، راحت خواطر كلٍّ منا - وهو ما تأكدنا من جماعية حدوثه فيما بعد - تشاغلها الأسئلة: كيف سيتعرف كُلٌ منا على الآخرين؟ كيف سيرى الصوت الصوت؟ ثم غابت كل الأسئلة فيما يشبه الدوار عندما بدا أن الأبواب ستُفتح أخيرا، ستُفتح حقا، ستُفتح معا بعد أن

ضغطنا بقوة إضراب عن الطعام امتد لعشرين يوما، وكنا قد هددنا باستمراره حتى الموت إن لم ننل الحد الأدنى من حقوق السجناء العاديين العادية: ضوء في الزنزانات بالليل، جرائد وكتب وزيارات للأهل، و«طابور شمس»!

بطول أسبوع كامل بعد التفاوض مع إدارة المعتقل، أخذوا يمنحوننا ما اتفقنا عليه من حقوق السجناء واحدا واحدا بعد إنهاء إضرابنا عن الطعام، ولم يتبق غير فتح الأبواب للحصول على هذه الفسحة الجماعية في الردهة، «طابور شمس» نرى فيه الشمس وترانا بعد شهور الانفراد والعتمة. وأخيرا راحت الأبواب السوداء المصفحة الثقيلة تنبئنا عن بوادر فتحها، فنسمع صليل مزاليجها الحديدية وهي تنزاح تِباعا. ولم نكن نصدق ما يحدث حتى إننا أمسكنا أنفاسنا فلم يعد هناك صوت إلا صوت انزلاق الحديد على الحديد. ثم إننا دفعنا الأبواب بلا يقين، فانفتحت. وهجم علينا النور.

مثل خيول طال احتجازها في مرابضها عندما يرفعون أمامها الحواجز بغتة، أجفلنا. تراجعنا أمام هجمة الضياء التي انهمرت على أبصارنا من الأبواب التي انفتحت عن آخرها دفعة واحدة. أعشانا الضوء فتخبطنا متقهقرين للحظة، ثم.. مثل الخيول تماما اندفعنا نركض. نركض نركض نركض. تسعة وأربعون إنسانا وجدوا أنفسهم في طرقة بدت لهم في هذه اللحظة طويلة ووسيعة كما لم يألفوها من قبل حين كانوا يقطعونها فرادى مخفورين، ردهة تحت سماء مفتوحة بدت أصفي ما يكون برغم سحب الشتاء الرمادية السابحة في زرقتها المقبضة. كان برد الشتاء شديدا والأوصال

تستيقظ في الشعاع الحانى لشمس صغيرة تلاعبنا، تطل للحظات من بين الغيوم ثم تختفي ومن جديد تطل، شمس شتوية صغيرة لكنها بدت لنا في تلك اللحظات غامرة بالدفء وعامرة بالنور، تشمل بنورها الدنيا كلها التي أحسسنا بها تترامى خارج أسوار السجن العالية حيث الأهل والأحباب والأصحاب والشوارع وبيوتنا البعيدة. وانفجر الركض.

بلا اتفاق وبلا تدبير، وكأنما بِردِّ فعل غريزي جماعي واحد رحنا نركض. ربع ساعة أو أكثر من عنفوان الركض الزاهي توهجت به الردهة. وكانت الأنفاس تشتد والصدور تتفتح والأقدام تعلو في ركضها دون صخب من زعيق أو كلام. لم نكن نتبادل إلا لحظ العيون الفرِحة المُحيية بينما نتمسك بفرحٍ ألا نتكلم، ألا يعطلنا الكلام عن الركض. وبتوافق غريزي عجيب كنا لا نتصادم أو نتقاطع في ركضنا. وفي ثمالة الركض بدأنا وقد تقطعت أنفاسنا وأخذت سرعة ركضنا تخفت، ينطق كل واحد باسمه كلما تلاقى وجهه بوجه زميل لاهث، وكأن تبادل الأسماء تتويج لحفل الركض الجماعي الحر هذا، تأكيد للحظة حرية انتزعناها بجوعنا الطويل. حرية ثمينة برغم حصارها داخل مستطيل مُحكم الإغلاق بين صفي الزنزانات المتواجهين. وراح تعارفنا يتكامل إذ كانت أسماعنا تلتقط ملامح الأصوات التي حفظتها في شهور العزلة. أخذنا نتحول من مجرد أصوات إلى أصوات يتم تركيبها على الوجوه والأجسام، فكأننا نتشكل بشرا ناطقين أمام بعضنا البعض بينما نلهث متوقفين عن الركض.

لم يكن التعب وحده هو الذي ألقى بنا لنقتعد عتبات الزنازين في مجموعات صغيرة إذ لم يكن مسموحا لنا بالتجمع الكبير معا. رحنا بصعوبة وعدم تصديق نزيل غشاوة المفارقات التي بدأنا نكتشفها عند تركيب الأصوات على أشكال أصحابها. ففؤاد رقيق الصوت كان ريفيا كهلا وربعة. ونادي ذو الصوت الأرستقراطي كان عملاقا أسود. بينما كان الصوت الجهير لعصام يصدر عن مخلوقٍ نحيلٍ أشعر. وإلى جوار هذه المفارقات كانت هناك اتفاقات عديدة: ففتيح قوي الصوت كان يمتلك بدنا قويا، وخليل ناعم النبرات كانت ملامحه ناعمة كصوته، ووفيق صبياني الصوت كان وجهه طفوليا. كنا نتشكل من جديد ونحن نلتقي أخيرا لأول مرة ونتعارف، ونتأمل معا المكان الذي عشنا فيه أربعة أشهر من دون أن نعلم عن تكوينه إلا أنه مجرد فجوات معتمة حشرونا فيها منفردين.

كان عنبر اعتقالنا «السفلي»، أحد عنبرين تحاصرهما أسوار المعتقل الرهيب، يتكون من صفين طويلين من الزنزانات المتلاصقة يواجه بعضها بعضا، مبنية من الحجارة ومطلية بدهان جيرى مصفر، موصدة بأبواب سوداء مزدوجة من الخشب السميك الثقيل في الداخل ومصفحة بالحديد من الخارج. وكانت الردهة مبلطة بالأسمنت ومفتوحة فوق الزنزانات والجدارين العاليين اللذين يغلقان جانبيها على سماء رمادية بها سحب ممزقة وشمس وانية. شمس شتاء بدت صغيرة للغاية مع تكاثر مزق الغيوم عليها وهي تصعد من الضحى إلى أول الظهيرة. ترتفع وئيدا من وراء قباب جامع محمد علي وبرجولة قصر الجوهرة التي رأيناها فوقنا

بعيدا، أبعد من حقيقتها في الواقع. وكنا نتشرب بأبصارنا المتعطشة للسماء والنور هذا الجزء من الصورة فوق الجدار الشمالي للردهة عندما نزل بنا نازل يهمس، همسا حادا كشفرة ماضية: «جاسوس. جاسوس. وسطنا جاسوس».

ربما أنني تغيرت الآن كثيرا عما كنته في تلك اللحظة البعيدة بحكم الإيغال في العمر. أو بحكم الانتقال من حياة السجن إلى حياة الحرية التي لم تكف عن الارتعاش. لكنني على أي حال كنت واحدا ممن أشعلهم الغضب بين السجناء التسعة والأربعين، وقد تسلح بعضهم بالعصي الحديدية الثقيلة التي تشكل روافع مزاليج الأبواب من الخارج. اندفعنا لتصفية حساب مرير غامض مع ذلك «الجاسوس» الذي عثر عليه بعضنا مصادفة. كان قابعا في صمت وراء باب زنزانة مغلقة وسط صف الزنزانات الشرقي. ففيم كان قبوعه وراء الباب المغلق لزنزانته بينما انفتحت كل أبواب زنزاناتنا؟ ولم كان صمته الطويل؟ ولماذا لم نسمع صوته من قبل؟

أسئلة لم يكن لها في بادئ الأمر غير إجابة واحدة: إنه مزروع في وسطنا منذ مدة ونحن لا ندري، يتجسس على ما نتهامس به عبر الجدران مستخدمين «قروانات» الطعام المعدنية كمُجسِمات للصوت، نلصقها بالحيطان وبـالآذان عندما نتكلم أو نصغي. ولا بد أنه كان يستعمل الوسيلة نفسها ليتجسس على همسنا وينقله إلى إدارة المعتقل أولا بأول. اقتحمنا عليه باب الزنزانة الذي كان مزلاجه مُزاحا وليس في حاجة إلاَّ لمجرد ركلة قدم لينفتح، بينما كانت هناك عشرة أقدام على الأقل تركل الباب معا في لحظة واحدة.

ملأنا الزنزانة التي تراجع مذعورا إلى ظهرها ونحن نتقدم منه، يشهر بعضنا قبضاته المتشنجة ويرفع آخرون عصي المزاليج الحديدية الثقيلة. ثم إننا معا أعلينا هذه القبضات وتلك المزاليج بكراهية لتهوي، إلا أنها تعلقت في الهواء إذ أمسكت بها صرخة فزع مُولوِلة. صرخة تخرج من حلقٍ مَن لم يتكلم أبدا. وتوالت صرخاته المرعوبة والمرعبة تدفعنا إلى الخلف، إلى الخلف، إلى الخلف وخارج زنزانته محنيين ومخزيين، تتداعى قبضاتنا وتتساقط العصي الحديدية فترتطم بعتبة زنزانته وبرصيف الردهة وكلاهما من البازلت، ارتطامات مدوية جلبت إلينا الحرس المهرول، فيما ظل هو قابعا بمكانه تخفت صرخاته وتستطيل، تستحيل إلى نحيب غريب لسجينٍ أخرس أصم، نحيب موجع وجارح، لا يزال يطعن قلوبنا برغم مرور العهود، والعقود، والسنين.

سيل الليل

هو الذي بدأ ذلك مفاجئا إيانا في منتصف الليل. ليل ديسمبر البارد شديد البرودة في العنبر الكبير بسجن «ترحيلات» الخليفة الموحش والمرعب كأنه خرافة قديمة استيقظت في زماننا. الحيطان الحجرية العالية والطاقات المدورة الضئيلة قرب السقف البعيد. المصاطب الآجرية لصق الحيطان والأرض الغبراء المُسفلتة بالقار. وتلك البوابة التي تشبه في صعودها وهبوطها المقاصل: حزمة من حراب ترفعها وتخفضها جنازير حديدية، تُحدِث في حركتها صريرا بشعا خصوصا عندما يتم فتحها في منتصف الليل مثلما حدث.. ورأيناه فوق رءوسنا وسط حشد من عساكره.

كان نحيفا وبعيدا عن تأنق الضباط في ملابسهم الرسمية رغم أنها نفس الملابس. بها شيء ما كأنها غير مكوية رغم أنها مكوية، أو ضيقة أكثر من اللازم رغم مناسبتها لقوامه النحيف. شيء ما كان بها. ثم إن عينا من عينيه كانت مشدودة الجفن السفلي قليلا إلى تحت من أثر اندمال جرح عميق وكسر بالعظم الوجني. كانت عينا مرعبة. وكان على العموم يوحي بالرعب حتى إنني توقعت أنه جاء ليلتقط بعضا منا ليتسلى بتعذيبهم في هذا الليل. وقد كان ذلك واردا في تلك الأيام التي أُطلقت فيها الأيادي الخرساء. لكنه لم يكن ينتقي. لقد أخذ يطوف بنظراته فوق رءوسنا ونحن قعود على الأرض، ثم ينظر إلى الحيطان والأركان والسقف. يتشمم، ويعيد

التشمم ويبدي امتعاضه، ثم يسأل: لماذا الرائحة كريهة. وأمر بألا ننام حتى يتم تنظيف المكان وتختفي الرائحة!

أي رائحة في هذا المكان الشاسع ذي السقف البعيد شديد الارتفاع وكأننا في عنبر أحد المصانع. أي رائحة يمكن أن يطلقها هذا البرد القابض على كل شيء.. الحيطان والأرض وأجسامنا المكومة والمرتجفة على عُري هذه الأرض؟ ثم إننا كنا قليلا ما نأكل أو نشرب في هذا السجن الغريب الذي لا يعترف بأن البشر يأكلون ويشربون، ربما لأنه سجن «ترانزيت» يمر به السجناء العابرون بين السجون. سجن الأيام القليلة المفزعة الذي يأتمر بأمره هو المأمور صغير السن والرتبة. وقد أمر بالماء بعد منتصف الليل البارد فجيء له بالماء.

خرطوم الحريق الهائل مدُّوه حتى قلب العنبر وأمسك هو «بالباشبوري» وراح العساكر يرمون فوق رءوسنا بالدلاء وقطع الخيش وهم ينتهروننا. ثم أَمر بفتح الماء فانفتح جحيم الصقيع. بردٌ سائل ومندفع ومطرطش ولادغ بمباغتاته راح يكنسنا أمامه. كان يوجه الماء نحو أحد الأركان فيرتد الماء متسارعا كأنه سيل يجرف من لبثوا في أماكنهم. ثم يغير مكان انصباب الماء فيأتي السيل من الجانب الذي هربنا إليه وتندفع كتلتنا إلى مكان آخر حتى لم يعد هناك مكان لا يتدفق إليه الماء غير المصاطب التي وضعنا عليها أشياءنا، ولم يعد هناك من خيار إلا التمرد أو التقاط الدلاء وقطع الخيش وتجفيف المكان ونقل المياه إلى الدورة التي فتحوا أمامنا الطريق إليها. وما بين الاختيارين وجدت نفسي الشخص المسئول

عن قرار السجناء خصوصا وقد بدأت نُذر التمرد من الشبان الصغار قليلي الخبرة الذين شكلوا أغلبية هذه الحبسة.

كانوا صغارا بينهم من لا يتجاوز الثامنة عشرة، خبازون ونجارون ونقاشون وعمال بناء قضوا فترات في الغربة كدحوا فيها وعادوا ببعض المال وبعض الأشياء التي ظلت معهم وكدسوها على مصاطب العنبر: تلفزيونات وأجهزة تسجيل وقطع أقمشة وبطانيات وهدايا للأهل. وكانت هذه بالذات هدفه القادم في الإغراق لو حدث تذمر إضافة لالتقاط من يمكن التقاطه من المتذمرين للتعذيب. ولقد بدأ التذمر زفرات وشتائم مكتومة ودفقات بكاء أيضا. وكان عليّ بصفتي أكبرهم وأكثرهم خبرة بالسجون أن أسرع لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. تقدمت مستنفرا الشباب للعمل فالتقطت أول دلو وأول قطعة خيش فأحسوا بأن تصرفي ينطوي على حكمة ما وراحوا يلتقطون قطع الخيش والدلاء بهمة وتسارع.

مع الحركة راح الدفء يندفع حتى يبلغ طرف الأطراف فلا تحس ببرودته أيادينا العارية ولا أقدامنا التي نعريها له، ويصير الأسفلت المبلول البارد مُدغدِغا بلطف لبطون أقدامنا. تبدو الرحلة من العنبر إلى حيث ندلق ما جمعنا من الماء مثيرة. قطار ذاهب وآخر عائد على أرض الدهليز المبلطة بالبازلت. دلاء تتقارع وصيحات تتعالى وأقدام تُلبِّط ومياه تُبقبِق. يشتعل الليل بحرارة لم يكن أحد يتوقع مصدرها. ويدرك هو مدى انتشائي فيوجه الماء متعمدا نحو قدميَّ وينفعل وهو يفعل ذلك ويتصاعد انفعاله حتى ينحني ويفتح فمه على صيحة ظفر لا يطلقها عندما

يدرك موقعه كمأمور سجن في مواجهة مساجين. وفي هذه البرهة من فتح فمه رأيت ما رأيت فخمدت نشوتي وتغيرت رؤيتي للسيل وله. وانشققت إلى اثنين..

رأيت لسانه المعضوض عميقا وكثيرا فعدت أنظر إلى جرح وجنته واكتشفت أثر جرح هناك عند الحاجب وثالث في بروز الجبهة ورابع على جسر الأنف.. آثار جروح متهتكة ومندملة. هذا شخص وقع على وجهه وتكرر وقوعه على هذا الوجه ولا بد أنه وقع بكامل طوله غائبا عن الوعي حتى لم ينج من أثر الارتطام بالأرض إلا ما كان غائرا من سحنته.

هذا مريض بصرع مزمن تواتيه نوبات تشنج كبرى. وضع الطبيب في داخلي تشخيصه وأسرع السجين الذي كنته يلتقط خيط هذا التشخيص ومن الطبيب يشده. لم يعد سيل هذا الليل لدى السجين داخلي سيلا يجري في وديان صحراوية عطشى فيُحييها بل قسوة غبية تندفع محطمة البيوت وتقتلع الشجر وتترك الأرواح في عراء مقفر. وترتفع في ركن من النفس ضرورة إيقافه.. بل تحطيمه!

* * *

ظل يظهر فيما بعد منتصف الليل يوميا. ترتفع البوابة المقصلة ونراه فوق رءوسنا ثم يأمر بالماء ويندفع الماء، وأندفع أنا... بل يندفع نصفي السجين. صارت العبارات التي كنت أوجهها لإحماء همة زملائي الصغار موجهة لإصابته بنوبة... أفتعل أقصى الاستمتاع بجمع المياه من فوق الأسفلت، فيوجه نحوي تيار مياهه الجارفة فأعلن تهليلي ببركة المياه وأشمر. أجمع المياه «بفلة» الخيش في

حمية وتسارع، وأُعطي لتسارعي إيقاعا كأنني أرقص في حراكي وهو يُجن. يصوب نحو قدميَّ فأتهلل. نحو يديَّ فأتهلل أكثر. وتتبادل عيوننا النظرات المحرقة. أعرف أنه يلتهب وهو يعرف أنني أؤجِّج فيه النار لكنه لا يدرك هدفي. هدف نصفي السجين، أن أشحنه بأقصى الانفعال حتى ينفجر... حتى يدخل في النوبة، يرتعش (باشبوري) المياه بين يديه ثم يطلق صرخة الصرع المفزعة الأليمة قبل أن يهوي بطوله على الأرض غائبا عن الوعي. يهوي على مرأى من عساكره المأخوذين والمساجين الذين سيربكهم الأمر. يهوي متشنجا في مياه السيل التي أطلقها ثم ينتفض وينتفض وينتفض. يعض لسانه حتى الإدماء ويبتل حتى عظامه. لكن الطبيب داخلي تولاه الفزع.

الطبيب الذي ردد قسم أبوقراط في حفل التخرج ويهزه تعبير شرف المهنة. شرف مقاتلة المرض واستخدام الطب للخير فقط. كيف يسمح بإحداثٍ متعمَّد للمرض وبهذا الاستغلال الوحشي لعطايا الطب؟!.. كيف يقف متفرجا ينتظر الانتقام من الشر بشرٍّ آخر؟.. وكان الطبيب يتردد. وفي اللحظة الأخيرة يندفع ويرفع سكين التيار الصاعق. تيار شحن هذه البؤرة في مخ هذا الضابط المُمسك بباشبوري المياه يوجهه نحوي وكأنه يطلق صوبي نيران مدفع رشاش. يبدو موشكا على انتزاع مسدسه من الجراب المتأرجح في خاصرته وإطلاق النار عليَّ لينهي هذا التحدي من سجين لديه. لكن هذا بالذات ما يوقفه: أنني سجين وأنه مأمور ولا ينبغي أن ينزل إلى حد كشف منازلته لسجين ثم إنه غير مخول بإطلاق النار. كنت أعرف هذا وأتمادى. يتمادى نصفي السجين حتى يبدأ رشاش الماء

في أول الارتعاش بين يديه المهتزتين، عندئذ يقفز الطبيب ويوقف الشحن. بل يفرغ الشحنة بكلمة يُرضي بها كبرياء المأمور المرتعش: «كفاية علينا يا حضرة المأمور. تعبنا». «تعبتم؟» يسأل في تعاجُب ويجلجل صوته بالضحك. يرشّ قليلا من الماء ثم يتوقف ويمضي منتشيا بانتصاره. لكن إلى متى؟.

* * *

لعله اكتشف الكمين... ولا بد أنه رجع إلى المكاتبات التي وردت إليه والتي سيعيد تصديرها أثناء ترحيلي وعرف أنني سجين سياسي وطبيب أمراض نفسية وعصبية. فقد جاء في موعده بعد منتصف الليل ووقف واضعا يديه في جيبيه وأخذ يتأرجح في عظمة. ثم حانت منه التفاتة ساخرة نحوي وقال بتهكم: «أخبار النضافة إيه يا دكتور المجانين؟»، وأخذ يُقلِّب وجهه في الأركان ويتشمم كعادته السابقة لكنه لم يأمر سريعا بالماء. تأخر في إصدار أمره حتى إن أحد عساكره سأله: «نمد الخرطوم يا باشا». ورد بعد برهة: «لا مافيش داعي. يظهر أنهم نِضْفوا»، وكان ينظر نحوي بإيعاز وتهكم. ولم أنم ولم ينم كثيرون. وامتد أرَقِي حتى الفجر.

لقد كانت برودة المياه وتجفيفها ينهكانا حتى نتساقط في نوم عميق فور أن يُنزلوا البوابة ويبتعدوا عن العنبر. لكنني في أرقي المستجد عدت مجرد سجين تسحقه وحشة ليالي السجن الطويلة.. ويفتقد منازلة الماء.

عُري أحمر

لم أعرف إجابات قاطعة لأسئلتي عما حدث له. أبدا لم أعرف، وعلى امتداد ثلاثين سنة من اختفائه ومغادرتي للسجن، لم أجد من يعرف.

* * *

كانت أيام السجن الأولى المضطربة قد مضت، واستقر تسكيني مع مجموعة من الزملاء في زنزانة بالطابق الأول تطل على مدخل الدرج الحديدي بين طوابق السجن الخمسة. ولما كان زملائي في الزنزانة قد رتبوا إيقاعهم على عدم الاستيقاظ مبكرا لأنه لم يكن مسموحا لنا نحن السجناء السياسيين بالخروج إلا في الظهيرة - لمنع اختلاطنا ببقية المساجين واحتمال التأثير فيهم - فإنني وقعت وحدي في دائرة خانقة من الضيق عندما كنت أستيقظ كعادتي في الخامسة أو السادسة منفردا ولا أجد من أحادثه بين الأجساد المرصوصة على أرض الزنزانة والمستغرقة في النوم، والتي ربما كانت تداعبها الأحلام أو تفترسها الكوابيس.

لم يكن ضوء الصباح الباكر الشحيح المتسلل من نافذة الزنزانة يسمح لي بالقراءة، فلم أجد أمامي إلا ثقب الباب أقف وراءه وألصق به عيني لأختلس النظرات إلى دبيب حياة السجن التي تبدأ مبكرا. لكن الوقفة في مساحة ضيقة للغاية بين رءوس وأقدام زملائي النائمين والباب الموصود والثقب الضيق، كلها كانت أمورا مرهقة لا تفرِّج إلا القليل من ضيقي الصباحي الذي

تراكم وتضاعف حتى كاد الجنون يصيبني لولا اكتشافي لحيلة أرجوحة البطانية المعلقة، والتي أتاحت لي مكانا دائما للإطلال عبر النافذة الصغيرة المصفحة بالقضبان بأعلى الباب، ومتابعة ذلك العرض اليومي الغريب، الحي، المتكرر والمتجدد، والذي يبدأ مبكرا والذي كان «فتحي» هو أول من يظهر على خشبته، بل على درجه الحديدي.

لعل أحدا نقل لي الفكرة، ولعلي عثرت عليها صُدفة. فأنا لا أتذكر إلا بهجة الاكتشاف الخارق لسهولة ربط طرفي أحد أقطار البطانية في قضبان النافذة الصغيرة المستطيلة بأعلى الباب، طرف في أقصى القضبان من اليمين، والطرف الآخر في أقصى القضبان من اليسار، فتتكون بين الطرفين أرجوحة أدخل في قوسها وأتعلق بالقضبان رافعا جسمي بيدي المتشبثتين وقدمي العاريتين اللتين تجاهد أصابعهما في الصعود على حديد الباب حتى أستقر. أجلس بارتياح داخل الأرجوحة ممسكا بقضبان النافذة وأرسل بصري عبرها إلى العالم الداخلي لسجن يستيقظ.

* * *

«فرقة الجرب تِجْـ مَـاااااع».

كان هذا النداء هو صيحة الديك التي يبدأ بها السجن استيقاظه، يطلقها ممرض سجان يرتدي زيا أبيض كالحا وبيريها أبيض كالحا أيضا، بعد أن يفتح زنزانة «عيادة العنبر» ويُخرج منها دلوا صدئا مملوءا بمحلول «البرمنجنات» الأحمر المركز، والمغموسة فيه فرشاة عملاقة مكونة من يد مقشة طويلة في نهايتها تتكور

مجموعة شرائط من خرق اصطبغت باللون الأحمر. وعلى صوت النداء الجهوري الذي تتردد أصداؤه بين جنبات العنبر الكبير يبدأ نزول أفراد «فرقة الجرب» ويكون أولهم في الظهور مخلوق محني الظهر كأنه في التسعين، برغم ملامحه الشابة، وشعره الذي لا يخالطه أي شيب، وأعضائه التي لا يعتريها ذبول الشيخوخة ولا حتى وهن الكهولة.

كانوا حوالي خمسة عشر يهبطون الدرج تباعا وهم عراة تماما. وويل لمن يترك قطعة ملابس ولو صغيرة تخفي عورته، فهو ينال وابلا من الضربات السريعة بقطعة خرطوم ثقيل يتسلح به التومرجي السجان، مع سيل من شتائم مقذعة، وإضافة من ضربات طائشة تصيب البقية من أفراد الفرقة العراة على سبيل «التأديب والتهذيب والإصلاح» كما يقول شعار السجن، وكل السجون، ويردده التومرجي السجان بيقين وزهو.

بعد أن يكتمل تَجمُّع الفرقة العارية أسفل السلم يصُفُّهم التومرجي السجان على الحائط رافعين أياديهم. ويبدأ في طلائهم بفرشاته العجراء العملاقة كأنه يدهن حيطانا، من الأمام أولا ثم يديرهم ليدهنهم من الخلف، ثم يديرهم من جديد ومن جديد يكرر الطلاء، فيتحولون معا إلى نوع من عفاريت حمراء مذعورة تظل رافعة أياديها حتى يجف الدهان في الوقت الذي يحدده التومرجي، ومن ثم يسمح لهم بإنزال أياديهم.

لم يكونوا جميعا مصابين بالجرب، بل كانوا مصابين بألوان مختلفة من الأمراض الجلدية، لكن طبيب السجن المصاب بإحباط

وتبلد مزمنين وضعهم في خانة واحدة تسهيلا على الإدارة، ليسكنوا معا في عنبر واحد من عنابر المنبوذين يسمى «عنبر الجرب».

بعد أن يتم طلاؤهم بمحلول البرمنجنات والذي يوشك أن يكون ساما لفرط تركيزه، يصيرون حمرا بامتقاع، ويبتعدون عن الحائط مصطفين في طابور منتظم فور سماعهم صرخة التومرجي السجان «انتباه». لكنهم لا يبدءون التحرك إلا عندما تهوي ضربة خرطوم على جسد أحد الواقفين منهم في أول الطابور، ويكون تحركهم إيذانا بانتقالهم إلى فناء السجن الجانبي لأخذ «طابور شمس».

في ركن الفناء الجانبي الضيق يطلقونهم لمدة ساعتين ينالون خلالهما من أشعة الشمس الباكرة ما يطهر جلودهم، و بعد الساعة التاسعة يُسمح لهم بارتداء سراويلهم، لكنهم يمكثون في الشمس حتى الظهيرة. ومن ثم كان يتاح لنا نحن الطلاب السجناء أن نراهم وحدهم من دون أن نرى بقية المساجين، لأسباب لا يمكن أن تكون بريئة أو عشوائية، فلم يكونوا يسمحون لنا بالخروج «فسحة» إلا في ذلك الفناء الجانبي، ولوقت محدود عند الظهيرة حيث لا يكون أمامنا غير هؤلاء العراة الحمر من «فرقة الجرب».

ومن بين جميع أفراد فرقة الجرب لم نعرف غير «فتحي»، الذي أطلق عليه بعضنا «فتحي لزقة»، إذ كان من دون زملائه لحوحا ومتزلفا بشكل منفر، يقترب منا دون أن ندعوه، مادا يده المفزعة بثآليلها وحراشفها المنفرة وعلى وجهه الأملس ابتسامة واسعة لزجة وتحية لجوج. ولم يكف عن محاولاته حتى بعد أن تهور بعضنا وفزع فيه ليبتعد ولا يعاود الاقتراب.

رأى أحد زملائنا المولعين بعلم النفس أن فتحي لا يتصرف على هذا النحو لينقل إلينا مرضه الجلدي، بل ليوهم نفسه بأنه ليس منبوذا، وربما كان مقتنعا بأنه ليس أجرب بل مصابا بمرض جلدي «عادي» و«غير معد»، وهو ما كان يردده على مسامع الجميع من دون ملل. ولم يقتنع معظمنا بهذا «التحليل»، إذ رأى في تطفل فتحي سلوكا عدوانيا مدفوعا من قبل إدارة السجن، لإصابتنا بهذه العدوى المهينة، أو على الأقل لوضعنا في حالة توتر لا ننعم معها بالدقائق القليلة من رؤية الشمس التي انتزعناها انتزاعا بتمرد لم يخل من مخاطرة، وإضراب عن الطعام استمر أسبوعين.

مكثت أرى فتحي كل صباح في «حفل الدهان الأحمر» الذي لم يكن غير افتتاحية لما يُعرض على هذا المسرح الغريب، مسرح عنبر السجن من الداخل، والذي كنت أتابعه من مجلسي على الأرجوحة المعلقة، وعبر قضبان النافذة العالية الصغيرة، فبعده تتوالى المشاهد لعرض مفتوح يتكرر يوميا منذ سنين بعيدة على الأرجح، وبذات الملابسات في سجون أخرى بالتأكيد...

* * *

تخرُج «فرقة الجرب» من العنبر لطابور الشمس فيأتي دور فرقة «التسييء» المكونة من أفقر السجناء المحكومين بالأشغال، والمنوط بهم مسح بلاط العنبر يوميا بعد إطلاق الماء فيه. مكثت أراهم منكفئين في صف عرضي ممتد من الحائط للحائط على مماسح الخيش. وبصفارة من شاويش التشغيل الذي يقودهم وبضربات ثقيلة من حزامه الجلدي العريض والغليظ، ينطلقون

معا، يهرولون مقرفصين ليندفع خط المماسح الملتحمة كاشحا الماء من أول العنبر الطويل حتى آخره، ثم يكررون ذلك في الاتجاه المعاكس. ولم أرهم أبدا إلا مقرفصين.

بعد ذلك يبدأ النداء على أفواج المساجين العاملين في المخبز والمغسلة وورش الجلود والنجارة والكانتين، ثم تُغلَق بوابة العنبر الرئيسة لإخراج بقية السجناء من زنزاناتهم، للذهاب إلى دورات المياه والتريض داخل العنبر الذي يتحول إلى ما يشبه ساحة سوق فعلية، تموج بالمشترين والمتفرجين والمتسكعين ونداءات باعة السجائر والملابس الداخلية والمعلبات والزيت والشاي والسكر والكيروسين لإشعال مواقد «التَّوْ تَوْ» الصغيرة الغريبة، يصنعها بعض السجناء الحاذقين من علب السالمون الفارغة وفتائل نسالة البطاطين، فتكون بمثابة «بوتاجازات» صغيرة تصدر لهبا أزرق شديد الفعالية لإعداد الشاي وتسخين الطعام بعد غلق الأبواب، فهي من الممنوعات تطبيقا لإجراءات «الأمن والسلامة» داخل السجون والتي تشمل أيضا الأسلحة والنصال والمخدرات، لكن تواطؤا مدفوع الثمن لعساكر السجن كان يتكفل بالتغاضي عن هذه الممنوعات، إلا إذا رؤي إيقافها لبعض الوقت لأسباب لا علاقة لها لا بالأمن ولا بالسلامة.

لم يكن الشواذ بين السجناء في حاجة لمهارة اكتشافهم وسط زحام العنبر. فمن مشيتهم المتقصعة وكأنهن بنات هوى في شارع للرذيلة كان يسهل تبينهم، وإن ظلت هناك فئة لا يكشف عنها هذا المظهر المتهتك، وهم هؤلاء الشواذ بالإكراه الذين تم بيعهم عندما

دخلوا السجون وهم صغار السن وغير متمرسين بالإجرام، يتم بيعهم مقابل قدر معلوم من النقود أوعلب السجائر ينالها شاويش الاستقبال من مهرب أو تاجر مخدرات سجين يطلب مسجونا يقوم له بكل مهام الزوجة من جنس وطبخ وغسل ملابس وكنس ومسح وتنظيف الزنزانة مقابل بعض السجائر والملابس الداخلية التي بينها قطع نسائية مثيرة لزوم الفراش وعدد معلوم من السجائر كمصروف يد و طعام «ملكي» يحظى به أثرياء المساجين يأتيهم من الخارج.

هذه الفئة من الشواذ يجري «فتحهم» تحت تهديد نصال مطاوي قرن الغزال في زنزانة «تجهيز» يسكنها مجرمون دمويون عتاة، وبعدها يتم تسليمهم «لأزواجهم» حيث يجري احتفال خاص «بليلة زفاف «يقام في المساء ويوزِّع فيه «العريس» المشاريب والمخدرات وبعض الطعام والحلوى التي يحملها عساكر العنبر بين نوافذ أبواب الزنزانات تحت مظلة جنونية من صخب التحيات والتهاني وبعض الأغاني أحيانا.

تعلمت ايضا أن أميز القتلة في زحام السجناء داخل العنبر برغم ذلك الزي الأزرق الباهت أو الرمادي المزرق الباهت أيضا والذي يرتديه الجميع، إذ يبدو القاتل منفردا بشكل مروع وهو يسرع في مشية شاردة، رأسه مطأطئة قليلا ويداه متشابكتان وراء ظهره، ونظراته الساهمة تقطع بأن صاحبها لا ينظر إلّا في مكان وزمان تجمدا في داخله، كأنه يراجع تلك اللحظة الرهيبة التي اقترف فيها القتل.

* * *

لم يكن مسرح السجن ذاك مكتفيا بتقديم عروضه في الفترة الصباحية وحدها فثمة فترات أخرى كنت أصعد خلالها إلى أرجوحتي وراء الباب لأشاهد عروضا مختلفة عندما يمعنون في إغلاق الأبواب علينا دون بقية السجناء للتكدير للسياسي تبعا لمجريات التحقيق أو لتمردنا بالهتافات المناهضة للحكم أو الإضراب عن الطعام أو حتى اشتداد حركة التظاهرات أو المؤتمرات المطالبة بالإفراج عنا وكانت هذه العروض الإضافية التي أتعلق لمتابعتها ترتبط إما بقدوم فوج جديد من السجناء ـ في وقت العصر غالبا ـ وإما خروج فوج منهم ـ في وقت الضحى وقبل الظهر على الأرجح. وكانت ذروة المشاهد التي شارك فيها فتحي ببطولة مطلقة مرتبطة بحالة من ذلك النوع.

ثمة عروض أخرى شاهدتها في أوقات مبعثرة وتستدعيها إلى ذاكرتي حالة فتحي التي تشكل مفتاح هذا المسرح كله وهي عروض مونودرامية يقوم بها فرد واحد ينشق عنه زحام العنبر ويصطف بقية السجناء فيها قرب الحيطان متحولين إلى مشاهدين صاخبين أحيانا، وأحيانا صامتين، وهم يفسحون لبطل المشهد طريقا يعبِّر فيها عن احتجاجه أو مطالبه بعروض مذهله كأن يشق أحدهم كيس صفنه حاملا خصيته على كفه متقدما ببطء كأنه يجر أصفادا لامرئية، صارخا بشكواه من ظلم إدارة السجن أو شاويش يضطهده أو مسجون بلطجي يعمل لحساب أحد الصولات أو أحد الضباط ويبتزه «ببشلة» حامية أو بزجاجة من «ماء النار». وثمة من يبرُز في هذه العروض وقد خيّط فمه وأجفان عينيه بإبرة وخيط عادي ومشى

صامتا ببطء مادا ذراعيه أمامه وقدماه تتحسسان الأرض خطوة خطوة ويتخبط بين الجدران والأبدان حتى يتم إيقاف عرضه.

أما المونودراما المتكررة فكانت لمن يذرون مسحوق كوبيا الأقلام في عيونهم فتذيب الدموع المسحوق وتغرق به العين لتتحول في دقائق إلى ما يشبه حبة بطاطس بنفسجية مروعة تهدد بالعمى عين السجين المحتج إن لم يتم إسعافها على وجه السرعة.

كان مشهد الكوبيا في العين من العروض المعتادة شأنه شأن عروض أخرى مكررة مثل حقن الكيروسين أو البراز تحت الجلد مما يجعل الذراع أو الساق المحقونة تتورم بشكل مخيف وتحمر وتزرق منذرة بغرغرينة تهدد الذراع أو الساق بالبتر، وهي حالات توجب على إدارة السجن نقل السجين المصاب إلى مستشفي خارج السجن وإلا تحملت الإدارة المسئولية القانونية. وبالطبع لم يكن ذلك إلا سرابا قانونيا لا يوصل إلى شيء، وغالبا ما كانت الإدارة تكتفي بعمل إسعافات خشنة لهذه الحالات في مستشفي السجن يقوم بها تومرجي شاويش بتشريط الجلد بمشرط جراحي صدئ أو حتى بمطواة مسنونة مع غسيل وحشي بكحول مركز أو صبغة يود كاوية. أما العين المسلوقة بالكوبيا فكان يُكتفَى بغسلها بتيار ماء مندفع من خرطوم صنبور عادي. وكانت العين لا تكمل عماها لكنها تفقد معظم قدرتها على الإبصار ثم يلقى بالمصاب في حبس انفرادي للتكدير، شأنه شأن من تُنقَذ أطرافهم من البتر وإن كانت هذه الأطراف تنتهي إلى العجز التام أو بعضه.

* * *

تتدافع إلى ذاكرتي المشاهد ويظل فتحي في مشهد حفلة الدهان عاريا ورافعا ذراعية ومصبوغا باللون الأحمر، يقترب فيشغل مساحة كبيرة من الذاكرة، ويتراجع فتصغر صورته الحمراء العارية، لكنها تظل في مكان ما رهن الاستدعاء، كأنها «كيو» مسرحي يستنطق من يليه، يتسارع إيقاع تقدمه وتأخره ويتواتر تكبيره وتصغيره فتنهال على ذهني صور المساجين الذين تعلقوا في شباك سقف العنبر يهددون بالانتحار أو ينتحرون بالفعل، وهؤلاء الذين مزقوا جلد صدورهم أو فروات رءوسهم الحليقة طولا وعرضا في طراز دموي شهير يسمونه «بلاط حمام». وكل ذلك لأسباب صغيرة بائسة لا تزيد أحيانا عن طلب علبة سجائر أو استرداد حلّة المحشي والنصف فرخة التي أحضرتها زوجة سجين في الزيارة واستولى عليها العساكر، أو أسباب وجودية ساحقة تجعل السجين المستوحش والمحروم من رؤية الحياة العادية لسنين طويلة يقامر باحتمال بتر يده أو رجله أو إصابة عين من عينيه بالعمى لمجرد أن يحظى برؤية الشوارع في رحلة خاطفة ومن كوة أو ثقب بصندوق سيارة الترحيلات عندما يُنقل إلى المستشفي فيرى الناس العاديين غير السجانة والمساجين ويرى الشوارع ويحظى بلحظة حنان تضمد فيها ممرضة أنثى عينه المطموسة أو جروح أطرافه المشتعلة.

* * *

الآن يتقدم فتحي في أفق ذاكرتي لأجزم من خلاله أن الحياة تصنع حبكات قصصها ببراعة ليست في حاجة أحيانا لأي تدبير فني

أو صنعة أدبية. وقد فاجأني وأنا في مرصدي الصباحي المعلق وراء باب الزنزانة الموصد وهو يرتدي ملابس «ملكية» ويقف في طوابير المساجين وراء بوابة العنبر مشرئبا منتظرا سماع اسمه بعد أن أبلغوه بذلك في المساء وأعطوه الثياب التي دخل بها السجن ليخرج بها ضمن فوج المفرج عنهم بقضاء نصف المدة لحسن السير والسلوك في منحة العفو الرئاسي لمناسبة العيد.

في البداية يأتي المحكومون بتهمة التسول ليكونوا أول من يُفرج عنهم وبنفس الشكل الذي رأيتهم يفدون به إلى السجن ذات عصر منذ شهور، فيتهيئون للخروج من العنبر ماشين في صفوف مقرفصة تتقدم تحت وابل ركلات أحذية العساكر في انضباط مذعور وكأنهم تحولوا إلى نوع من الضفادع المرتعشة. وكلما نودي على اسم واحد منهم يهم صائحا «أفنداای» لكنه لا يكمل الوقوف أبدا ويظل مقرفصا وإن ارتفع قليلا ويظل يجري بهذه القرفصة خارج بوابة العنبر ليلحق بلوريات المفرج عنهم.

لم يكن فتحي ضمن محكومي التسول برغم أنني مكثت أظن أفراد «فرقة الجرب «جميعا من المتسولين أو على الأكثر لصوص الدواجن ونشالي الأتوبيسات. فقد فاجأني تماما باستقامة عوده وبدلته الكحلية الأنيقة رغم تغضنها لأنها ظلت محشورة في كيس «الأمانات» مع القميص الأبيض الذي تغضن أيضا والحذاء الذي التوى والجوارب وبعض أشيائه التي كان يحملها في حقيبة يد صغيرة وهو يحاول الاقتراب من البوابة ليتمكن من سماع اسمه بوضوح. لكن تزاحم المساجين الأقوياء كان يرده إلى الخلف

فيدور حول كتلة الزحام ملتمسا فيها ثغرة للوجود بينما الكتلة التي تنكمش وتنكمش مع خروج المزيد من المفرج عنهم، ثم التقت عيناي بعينيه وهو يدور.

ابتسم ابتسامة واسعة بينما كنت أشرع في تحويل نظري عنه كما اعتدت أن أفعل من قبل لتحاشي التورط في تلقي سلامه ومن ثم مصافحته التي كان يقحمها بلجاجة على أيادينا المرتبكة. لكنني ما كدت أكمل تحويل نظري عنه حتى أدركت أن شيئا تغير فيه وأنه لن يفرض نفسه ولن يلقي السلام ولن يمد يده، وهو ما لمحته بسرعة عندما تلاشت ابتسامته ملتفتا أمامه. لكنني أدركته بتلويحة يد فبادلني التلويح بود، وهو أمر كان كفيلا من قبل بجعله لا يكتفي بالسلام بل ربما دفعه للانقضاض منتزعا حضنا مرعبا، ومن ثم جعلني تنائيه المستجد أمعن في مشاغلته، لكنه بدا زاهدا تماما ومنصرفا إلى ما هو فيه.

لم يعد داخل البوابة غير نفر قليل ممن ينتظرون النداء عليهم وبينهم فتحي. وكان النداء يتوالى تبعا لكشوف متعاقبة ينفد الواحد منها فتكون هناك فترة انتظار حتى يأتي الكشف الجديد ويُستأنف النداء. وفي فترة انتظار بدا أنها الأخيرة عادت عيناي تلتقيان بعينيه. ولم يكن هناك مهرب لكلينا فطال تبادل الابتسام واكتشفت أن له عينين بنيتين صافيتين وربما جميلتين أيضا وقلت له فيما يشبه الدعوة للاقتراب «مبروك الإفراج يا فتحي» بينما كانت يدي تخرج من بين القضبان وتمتد نحوه، فشب على قدميه ورفع يده وتصافحنا مصافحة طويلة لم يكن هو الذي حاول إطالتها كعادته السابقة،

بل أنا الذي فعلت متمسكا بيده وكنت أتلمسها عبر المصافحة، فأذهلتني نعومتها المفاجئة، لأنني في اليوم السابق كنت قد لمستها عبر إحدى مصافحاته المُقحَمة وأحسستها خشنة وجافة، خشونة وجفاف ما يفعله الجرب بالجلد المنكوب.

تماديت فشددت يده لأعلى حتى أراها من مسافة أقرب وكانت المعجزة جلية في الجلد الصافي الذي زال عنه تماما ذلك اللون الرمادي المطفأ لحراشف الجرب فلم يكن هناك غير جلد أسمر متورد نضر، صاف ونظيف. وانفصلت أكفنا عندما جاء الكشف الجديد وعاد النداء على أسماء المفرج عنهم.

كانت حفنة المنتظرين داخل البوابة تتسرب واحدا فواحدا حتى لم يتبق غير فتحي الذي تهدل في وقفته، وأخذ يهبط بقامته شيئا فشيئا حتى توقف نداء الأسماء. وأطبق على عنبر السجن صمت شرخته ضحكة شاويش البوابة المجلجلة، وفي أثرها انطلقت موجة عارمة من ضحكات وحشية من أركان العنبر، لا بد أنها كانت لهؤلاء الذين دبروا المزحة الثقيلة من شاويشية الأدوار وبعض السجناء الأثرياء اللاهين الذين يريدون التسلية بشيء ما، وبأي ثمن. لكن المنظر المغمور بالقهقهات المدوية انتهى فجأة بارتطامة مكتومة لبدن فتحي الذي سقط على الأرض ساكتا ومسكتا هدير الضحك.

لم يمت فتحي كما تبين لهم ولي عندما رأيت أحد عساكر العنبر يهرول مع سجينين راحا يرفعانه عن الأرض، وكان يرتفع معهما ويحاول رفع رأسه المتهدل وفتح أجفانه المطبقة كأنه يغالب النوم. وحيرني ولا يزال هذا اللون الأحمر الذي رأيته يفيض على ياقة

وصدر قميصه الأبيض ويترك أثرا واضحا على البلاط..هل كان دما؟ أم كان عرقا غزيرا تفجر من مسامه و نضح بحمرة البرمنجنات الكثيفة المتراكمة على جلده؟ و ماذا حدث له بعد ذلك إذ اختفي تماما ولم يعد يظهر في الموكب الصباحي لفرقة الجرب، ولا في طابور الشمس، ولا في السجن كله.

* * *

لم أعرف إجابات قاطعة لأسئلتي عما حدث له. أبدا لم أعرف، وعلى امتداد ثلاثين سنة من اختفائه ومغادرتي للسجن، لم أجد من يعرف.

عارية على حصان أمام البرلمان

«للذكرى.. فإن الذكرى ناقوس (يدك) في عالم النسيان».

لو أتيح لمصور صحفي سريع الاستجابة، وفنان بالضرورة، أن يختطف لقطة لهذه العارية الفاتنة وهي تمضي بحصانها المطهم في طريقها من ميدان التحرير إلى مبنى البرلمان، مرورا بسور المبنى القديم للجامعة الأمريكية، والذي لم تكن غطته لوحات «جرافيتي» شباب ثورة يناير، لظهر السور في خلفية الصورة بلونه الكريمي المتناثرة عليه بضع عبارات شاردة لمارة عابرين، ولاختار المصور الفنان لقطة يكون في صدارتها ذلك التكوين البارع لتلك العارية شفيفة العري على ظهر حصانها السامي، دون أي إضافة تدل على المكان الذي يقتنصه المصور خلوا من المارة، بحيث تبدو الصورة كما لو كانت ملتقطة من منظور «حلم ملون»، من تلك الأحلام قوية الحضور كأنها حياة بديلة. وربما اختار من بين لقطات عديدة واحدة تظهر فيها على السور تلك العبارة التقليدية التي توقف أمامها أحد المهتمين بعلم النفس، وكانت تضحكه وتثير داخله نوازع التأمل للأخطاء الإملائية والتعبيرية التي يعتقد أنها مثل «فلتات اللسان»، تدل على أبعاد أعمق في اللاشعور ويُظهرها الخطأ العفوي. فالعبارة المكتوبة على السور كانت: «للذكرى فإن الذكرى ناقوس يدك في عالم النسيان». والفلتة التي رصدها صاحبنا هي كلمة «يدك» بدلا من «يدق» في العبارة الأصلية، والتي رآها التعبير الأصوب في الظروف التي أدت إلى

الثورة، حيث كان مطلوبا من النواقيس ألّا تكتفي بأن «تدق» في عالم النسيان، بل أن «تدك» هذا العالم!

في ذلك اليوم عبرت الأميرة ميدان التحرير من دون أن يضرب العمى كل من رأوا جمالها العاري وهي تمتطي صهوة حصانها المطهم بالسرج المخملي الأحمر كما حدث لذلك «الزمار» الذي تلصص عليها من ثقب اصطنعه في نافذته المغلقة، مخالفا رجاءاتها بأن يبقى كل سكان البلدة في منازلهم ويغلقوا النوافذ. كلهم التزموا بما طلبت حبا لها وثقة فيها، إلا هذا الزمار الذي تحايل وتلصص فضرب العمى بصره

لم تكن أخذت عهدا على الناس في ميدان التحرير كذلك الذي أخذته على مواطني بلدتها، لأنها كانت قادمة طواعية وبتأثر شديد بعد مشاهدتها لمناظر المعتصمين على رصيف مجلس الشعب من عمال شركة الشوبارية الذين لم يتلقوا أجورهم منذ شهور تسعة، ومكثوا في اعتصامهم أسابيع طويلة مريرة من دون أن يصغي لشكواهم أحد، فخلعوا قمصانهم مهددين بخلع المزيد من ثيابهم كلما أمعن المسئولون وأعضاء البرلمان في تجاهلهم. وكان أكثر ما آلمها وأثّر فيها هو هيئة الفانلات الفقيرة المنسولة والمثقبة والأجساد المنهكة للمعتصمين، وملامح اليأس العميق الذي رشحت به وجوههم.

ولأن قرارها بالمجيء إلى مصر كان سريعا ومفاجئا وعابرا للزمان والمكان، فإن لعنة العمى لم تصب أحدا ممن شاهدوها تمر في طريقها إلى مجلس الشعب عارية بارعة الجمال فوق حصانها

الملكي، لكنهم أصيبوا بشيء يشبه السحر جمدهم في أماكنهم، بينما كل هذا الجمال الأسطوري يعبر أمام عيونهم المبهورة. ظن معظمهم أنه حلم يقظة، وخاف بعضهم أن يكون قد أصيب بالجنون ويمر بنوبة هلوسة بعد أن اختفت من ساحة بصره دون أن يستدل لها على اتجاه، فقد كانت تعبر الموجودين وهم في جمود من دون أن يتمكنوا حتى من تحريك عيونهم كأنهم مسحورون.

كل من رأوها تمر أمامهم في ميدان التحرير من راكبي السيارات والمشاة لم يتعرفوا عليها، حتى من كان مطلعا منهم على سيرتها الواقعية وأسطورتها. وتكرر الموقف وهي تعبر شارع قصر العيني في الاتجاه المضاد، فلا يضطرب سيل السيارات، ولا تلحق بخطو حصانها أقدام المشاة. ثم دخلت بحصانها العالي شارع مجلس الشعب وتوجهت من دون أن تترجل نحو البوابة الرئيسية، فهرع الحرس وأمن البوابة يفتحون الباب لها مؤدين تحية لا تؤدَّى إلا لرأس الدولة حين قدومه لافتتاح دورة البرلمان التالية لكل انتخابات برلمانية. فقد كان جمالها العاري وحصانها المطهم من الجلال والفخامة إلى درجة جعلت من شاهدوها فعليا يتصرفون كأنهم منومون يمشون في نومهم الحالم خارج الزمان والمكان، وبعيدا عن الدنيا التي ألفوها أو حتى تخيلوها.

كانت الأميرة جودايفا قادمة بالفعل من خارج الزمان والمكان من القرن الحادي عشر ومن إمارتها البعيدة غربي الأراضي الوسطى الإنجليزية، غير متبوعة بأي مراسم ولا مرافقين غير جمالها الباهر العاري فوق الحصان الأبيض المطهم وشعرها الخلاب الطويل

الذي التف حول هذا الجمال، وخبأ حناياه، فتجلى جمالا نورانيا لأنثى بلا شائبة، امرأة شابة نادرة النبالة أشعَّت بطاقة تأثير شفافة رقيقة ومُجتاحة، جعلت من توقفوا أمامها من حرس البرلمان تنهمر عيونهم بدمع غزير، بلا صوت ولا حزن لكن بإجلال عجيب. ثم راحت عيونهم تتابعها بعد أن عبر الحصان البوابة الحديدية المفتوحة على اتساعها، وظلت هذه العيون الفياضة متعلقة بها بعد أن توقف بها الحصان في صدر الساحة المواجهة للقبة التاريخية.

كانت الأميرة المتواضعة بقوة الجمال والرقة تعرف قدرها العالي، وتعرف أنها ليست من يذهب إلى هؤلاء الذين قصدتهم تحت القبة، ولا حتى هؤلاء الذين يقبعون في مجلس الوزراء في المبنى الباذخ الذي أولته ظهرها. فقط، قبل أن تدلف من البوابة التي انفتحت لها عن آخرها، التفتت إلى هؤلاء النائمين على رصيف البرلمان منذ أسابيع طوال، ولوحت لهم بيدها الكريمة وأومأت برأسها النبيل طالبة منهم أن يتبعوها، فأقبلوا في انشداه ثم انثالوا وراءها ذاهلين، حتى بدوا كأنهم يتداحون، طافين في منطقة انعدام وزن عجيبة بينما هم على الأرض!

* * *

رئيس الوزراء الذي كان يطل مصادفة من نافذة مكتبه المواجه لقبة البرلمان رأى المشهد الخاطف للروح فتجمد مسحورا، لا يرى من الوجود إلا جميلة جميلات تمتطي حصانا لا تَخفي نفاسته، وهي على صهوته عارية عُريا لا يخدش الحياء ولا يثير الغرائز، فكان مستعدا أن يترك ليس مكتبه فقط بل موقعه المرموق

وعالمه العام والخاص كله ليكون بالقرب من هذا البهاء. لكن إحساسا غامضا أنبأه أن هذه لا يتقدم منها أحد إلا عندما تطلب هي. فوقف ضائعا طافيا ما بين باركيه الأرضية المصقول اللامع وزخارف السقف الشاهق ناصع البياض. وظل طافيا ضائعا في طفوه يرنو إلى الجميلة العارية ساحرة الجمال ويستعصى عليه فهم وجودها وانضمام هؤلاء المعتصمين المهلهلين إليها. ومن جوف مبنى البرلمان رأى أعضاءه يخرجون مثل سيل بطيء غليظ، مقتربين بوجل من العارية الخلابة فوق حصانها المتوقف في شموخ، خالجه إحساس قوي بأنها سمحت لهم بالاقتراب لكن لمسافة لا يتجاوزونها. فقد كانوا يقتربون ببطء كئيب تزيده كآبة مناظر أجسام معظمهم الثقيلة، وسحنهم اللحيمة، وعيون النهم المصفوع الضيقة في وجوههم والتي تنم عن كائنات دنيئة تأخذ بشراهة ولا تعطي.

توقفوا عندما بدرت منها إيماءة امتعاض تبينها رئيس الوزراء من هزة خفيفة لرأسها النبيل. وتلاشى من المشهد في أثر هذه الهزة، كأنما بسحر ساحر، نواب الرصاص والقمار والفتنة الطائفية والمخدرات الذين يعرفهم. فقد كان يتملقهم ويذعن لمطالبهم كجزء «طبيعي» من جسم الفساد في الدولة. جعله التفكير في ذلك يشعر بندم أليم ينعى فيه نفسه كخبير رفيع الدرجات العلمية وابن أسرة عريقة، لم يزده المنصب الرفيع سوى وضاعة. وانهار في بكاء حارق تهاوى معه جالسا على الأرض فتبدلت صورة البهاء الذي كان يطل عليه. صار مساحة بنية تماوجها الدموع، فأدرك أنه يجلس على الباركيه العاري لا السجادة النفيسة في مكتبه، فانخرط في بكاء أشد.

على الأغلب لم يعرف كل من رأوها وتابعوها في ذلك اليوم أنها الأميرة جودايفا زوجة الأمير «ليوفريك» حاكم إمارة «كوفينتري» الواقعة غربي وسط إنجلترا في القرن الحادي عشر، وهي صاحبة الواقعة التاريخية المدوية التي أغلظ فيها زوجها على رعايا إمارته بفرض ضرائب مُبالَغ فيها، تسحقهم، فارتجوه كثيرا وطويلا أن يخفف من هذه الضرائب لكنه لم يلتفت إليهم، فما كان منهم إلا أن توجهوا إلى زوجته الجميلة والمحبوبة التي يثقون في طيبتها، طالبين أن تتوسط لدى زوجها الأمير، لعله ينظر إليهم بعين الرحمة. وعدتهم أن تبذل جهدها، لكن زوجها العنيد أبى أن يصغي لرجائها وتوسلاتها وتحبُّبها، ورفض أن يخفف العبء عن رعاياه. وحتى يؤكد أمام إلحاحها إصراره ويكفَّها عن تكرار الإلحاح، قال لها «لن أستجيب لما تطلبينه لهؤلاء الناس حتى لو سِرْتِ عارية على حصانك في شوارع الإمارة». وفاته أن للجمال كبرياء وإرادة!

الأميرة جودايفا التي يعني اسمها «عطية الرب» أو «هبة الله» طبقا للاسم في الإنجليزية القديمة، أوعزت لأهل البلدة أن يلزموا بيوتهم في اليوم التالي عند منتصف النهار وأن يغلقوا نوافذهم. وأمرت السُّياس أن يهيئوا حصانها للخروج ويتواروا مختفين في غرفهم بعد أن يكونوا أغلقوا كل منافذها. وفي الظهيرة التي اختفى منها كل إنسان عداها امتطت الحصان المطهم عارية، لافّةً عريها الفاتن بشعرها الطويل الغزير الجميل. وخطا بها حصانها الملكي يجوب شوارع البلدة الخالية على مهل. رصدتها عيون جواسيس زوجها الأمير فبلغه أمرها الصاعق وكاد يُجن غضبا، لكن هيهات

أن تهزم عجرفة أمير أو ملك إرادة امرأة جميلة نبيلة، حتى لو كان المُتعجرف زوجها الذي تحبه.

لم ترجع جودايفا عن تحديها لعناده، وقررت أن تواصل ركوبها عارية تجوب ليس شوارع البلدة فقط، بل تتخطاها إلى دروب الإمارة كلها، بل أكثر من ذلك ستطلب من الناس - إن تمادى زوجها في عناده - أن يخرجوا من منازلهم لمشاهدتها وهي عارية تمر. ولم يكن أمام الأمير الغيور والمغرور إلا أن يتنازل عن عناده ويخفف الضرائب عن رعاياه لتوقف أميرته تحديها الصاعق.

* * *

ظلت جودايفا بما أقدمت عليه أميرة قلوب الناس في «كوفنتري». لكنها إضافة إلى ذلك تُوِّجت ملكة الدنيا والتاريخ الحديث في الاحتجاج ورفض المظالم بالتعرِّي، وظلت من مكمنها الأثيري عبر مئات السنين تنظر بعين العطف والألم إلى احتجاجات المظلومين التي تئن بها الأرض، ويكون تعاطفها أحر ما يكون مع هؤلاء الذين يبلغ بهم اليأس أن يعترضوا على الظلم بتعرية أجسادهم. وكانت تأسى لنساء يعرين سر أسرارهن أمام رجالهن المتقهقرين في الحرب حتى يعودوا إلى الميدان غيارى مُشتعلين، فلا تقع زوجاتهم وأمهاتهم في الأسر ولا الانتهاك. هكذا فعلت الفارسيات، ما دفع بالرجال إلى مطلق البسالة في القتال فانتصروا بعد التقهقر. وكذلك كانت النساء العربيات يعرين نهودهن لرجالهن الخارجين إلى القتال حتى لا يتقاعسوا ويتركونهن سبايا للغاصبين. ولم تكن احتجاجات التعري الأحدث تخلو مما يجعل جودايفا

ملكة هذا النوع من الاحتجاج تسخر أو تضحك أو تتحير. فتيات يتعرين دفاعا عن «حقوق الدجاج» ضد محلات كنتاكي، وأخريات ضد «إبادة الديوك الرومية» في أعياد الفصح، ومثلهن ضد دموية مصارعة الثيران في مدريد.

أما ما جعل جوداييفا تخرج من ملاذها الأثيري بعد قرون عشرة، فهو منظر العمال المعتصمين على رصيف البرلمان المصري حين بلغ بهم اليأس درجة «الخروج من هدومهم»، وكان أول خروجهم من ثيابهم كاسرا لقلبها، فقد رأت فقر هذه الثياب وعرق أجسامهم المُتعَبة وملامحهم المخنوقة، وراعها ترْكُهم يسحقهم الضيق وتفريهم الضائقة دون أن يُصغي لأنينهم أحد ممن كانت في أياديهم مقاليد أمور هذه البلاد والعباد، والفساد!

* * *

على ظهر حصانها النفيس العالي في ساحة البرلمان التي تُظاهرها القبة التاريخية، سكنت الأميرة جوداييفا بهية العُري الشفيف وحولها هؤلاء العمال المقهورون الذين أدركت قبل أن تجيء إليهم أنهم لن يتعروا أكثر مما فعلوا، فبؤسهم الدفين كان أَمَرَّ من أن يكشفوا المزيد عن المستور منه. أخذت تحدق بثبات في لمة البرلمانيين أمامها لاطمة بنظرات عينيها الساحرتين الغاضبتين وجوه من بدوا لها براميل وأشباه براميل، آملة أن يصيروا بشرا وينطقوا بالحق ويعدوا بممارسة قوة الضغط التي بحوزتهم ليحصل هؤلاء المسحوقون على حقوقهم التي تعيدهم إلى بيوتهم وأولادهم ونسائهم رجالا، يستطيعون إطعام ذويهم وستر عريهم

وترميم السقوف المتهالكة فوق رءوسهم وسد شقوق الحيطان.
لكن البراميل ظلت براميل، وطال الصمت وطال الانتظار، حتى رن هاتف محمول في جيب البرميل الأكبر فتحرك يتلقى المكالمة..

لم يكن هناك من صوت مسموع غير صوت البرميل الأكبر يردد: «تمام يا أفندم. تمام زيادتك. عايعصل. عايعصل». كان حرف الحاء عنده مضروبا ويخرج من فمه عينا، والسين تخرج زايا، وهو ما تأكد عندما انتهت المكالمة وانشكح وجهه الدهني اللحيم، شد عوده المنفوخ المتقاصر، وانتفخ مزيدا وملأ بالشهيق صدره الضيق فوق البطن الكبير، ووجه حديثه بدرجة مفاجئة من الثقة البليدة إلى الجمال الخاطف على ظهر الحصان المُطهَّم: «تعت أمر زيادتك. أي شكوى لعضرتك. وأي طلبات للعُصان؟» (تحت أمر سيادتك. أي شكوى لحضرتك. وأي طلبات للحصان؟).

الأميرة جودايفا التي جعلتها شرفتها الأثيرية في اللا زمان واللا مكان تطل على العالم كله وتتعلم على امتداد ما يقارب عشرة قرون لغات البشرية كلها، ومنها العربية بلهجاتها العديدة. استغربت من طريقة كلام هذا الشخص الذي بدا أنه يشغل موقعا مرموقا تحت القبة التي خرج منها على رأس هذا الرهط. ظنته يمازحها هذا المزاح الغليظ الذي لا يمكن أن يصدر إلا من برميل بشري مكتظ بالهُلام والسخام. لكنها عندما لمحت نظرة التملق في عينيه الضيقتين وأثارت امتعاضها بقايا الخصلة التي صبغها ومدها وفردها ولزقها بنوع لامع من «الجل» لتداري اتساع صلعته، أدركت أن هذا شخص أدنى من أن يسخر من أي أحد يعلوه، حتى لو كان

عابر سبيل على ظهر حصان. وتجسم أمامها سؤاله الغريب عن «أي طلبات للحصان»!

لم تكن هناك أي طلبات لحصانها ولا أي حصان آخر. كانت هناك مطالب لبشر أشباه عراة وجوعى لم يتقاضوا رواتب من الشركة التي يعملون بها منذ تسعة أشهر كاملة، وكانوا مُهدَّدين بالطرد من هذه الشركة لمجرد أنهم عبَّروا عن شكواهم. مكثوا ينامون ويصحون في العراء لأسابيع طويلة على رصيف البرلمان لعل نواب الشعب يصغون لأنينهم دون جدوى. ولما أوصلهم اليأس إلى حد خلع قمصانهم المهترئة التي كشفت عن فانلات أشد اهتراء على أجسادهم المتهالكة، جاءت تساندهم فتبعوها آملين، وها هو ذا شخص يسألها عن «طلبات للحصان»!

استدارت ملتفتة لتشير إلى من هم أولى بسماع مطالبهم من أي حصان، فارتدَّت إليها التفاتتها مبهوتة، وبرق في عينيها الرائعتين استغراب صاعق... لم تجد حول حصانها هؤلاء الذين عبرت الزمان والمكان لتجيء إليهم، تلبى نداءات استغاثاتهم المخنوقة وتجبر رجاءاتهم الكسيرة. بشر لا يمكنهم حتى أن يُكملوا تعريهم احتجاجا، ليس بدافع تقاليد هذا البلد وحدها، ولكن لأن ملابسهم الداخلية وأجسادهم المهيضة، رغم امتلاء بعضها، كانت كلها مما يجعلهم على شفا الموت خجلا لو أنهم خلعوا بناطيلهم المهترئة بعد القمصان المنسولة. لقد اختفوا من دون أن تحس باختفائهم كأنهم تبخروا أو أن قوة غامضة شفطتهم بلا ضجيج. أين ذهبوا؟

دارت الأميرة بوجهها الذي شحب ونظراتها المذهولة على

وجوه من بقوا أمامها. براميل وأشباه براميل البرلمان. وجدتهم يبتسمون ثم تسري بينهم قهقهة لم تلبث حتى تحولت إلى موجة عاتية من القهقهات الوقحة جعلت حصان عبور الأزمنة والأماكن يتراجع بظهره مجفلا.. يتراجع، يتراجع، يتراجع، حتى اصطدم بشيء تصاعد منه ضجيج أربكه وجعله يصطدم بالمزيد. حواجز حديدية متحركة مدهونة بالأسود والأحمر أوقعها تراجع الحصان الجافل فحدثت الضجة. وخلف صف الحواجز رأت الأميرة صفوفا كثيفة من مسلحين مدرعين بخوذات حديدية وثياب سوداء وبنادق لقذائف مجهولة.

كانوا متأهبين تحت سور مبنى مجلس الوزراء الذي اعتلى القناصة سطحه وبرزوا من نوافذه. بينما كان الشارع الفسيح خاليا تماما، وتشتعل عند مفارقه البعيدة مطاردات حامية يلفها الغبار والغموض!

كرسي يمشي على رجلين بكبرياء

قبل أن يقع عليه بصري في زحام ميدان التحرير كنت في حالة وجدانية محلقة الانشراح، لإحساسي بأنني أشارك في صناعة حدث تاريخي ضخم تنجزه الملايين. وقد كنت في ذلك اليوم أصطحب زوجتي. ولأنني رجل غيور، بل غيور جدا إلى درجة الحماقة أحيانا، فقد آثرت والدنيا ثورة أن أزيح مفجرات غيرتي الخطرة هذه باستبعاد مبرراتها. فلم يكن لطيفا في خضم عظمة كعظمة الميدان الثائر أن أتشاجر أو أتلاسن مع أحد لأنه تساخف على زوجتي ولو بالمصادفة التي لا يمكن أن تعدها غيرتي مصادفة. لهذا كله ابتكرت وأنا أدخل إلى زحام الميدان الثائر وضعا مبتكرا لاصطحاب الزوجات في مثل هذه الظروف، أسميته وأنا فخور باكتشافه حينها: «وضع العَجَلة». وهو وضع حصيف بلا شك، يتيح لك أن تضع زوجتك أمام بصرك كاملة كل الوقت، وتحركها بفطنة من يرى حيزها الشخصي من ثلاث جهات. من يمين ومن يسار ومن أمام، بينما ظهرها الآمن بين ذراعيك. هذا الوضع يتلخص في أن تقود زوجتك وهي أمامك مادا ذراعيك وممسكا كتفيها براحتيك. تقريبا كمن يمسك «جادون دراجة»، بيقظة وحرص، لكن برفق وحنان في الوقت نفسه.

هكذا شققت زحام عشرات الآلاف، بل مئات الآلاف، بل عشرات مئات الآلاف، من مدخل كوبري قصر النيل حتى قلب الحدث: صينية الميدان التي يخيِّم بها معتصمو الثوار. وطوال هذه

المسافة التي لا تقاس بالأمتار بل بالحشود، لم يحدث أن شزرت أحدهم غضبا، أو أفلت فمي كلمة احتجاج أو توبيخ.

هكذا كان فرحي بنبض الثورة صافيا خالصا حتى إنني انطلقت أغني وأهتف مع المغنين لتلك الثورة والهاتفين بشعاراتها «عيش. حرية. كرامة إنسانية». بل شجعت زوجتي الخجول على أن تغني معي وتهتف أيضا. لقد أفسح وضع «العَجلة» المجال أمام روحينا للتخلص من حصار الجسد. وصرت أحلِّق بدراجتي العزيزة حرا وكأنني لا أنطلق على الأرض بل أرتفع في السماء، سابحا بها في نعومة كما دراجات الأولاد التي ارتفعت بتأثيرات إشعاع صديقهم الفضائي القادم من كوكب آخر، وراحت تنطلق حرَّة فوق الشوارع والبيوت والحدائق والغابات والأنهار في فيلم سبيلبرغ «إي تي».

وقبل أن أنتقل بكم إلى الخطوة التالية في مسيرة قصتي هذه التي تنقلت خلالها بين ثلاث حالات وجدانية في غضون ساعة واحدة أو ساعتين، وكأن فعل الثورة الخارجي الذي يحرق المراحل من حولي كان يؤجج التحولات الوجدانية داخلي، يُلح عليَّ أن أصرح لكم بأن غيرة الرجل على أنثاه، والتي دخلت بها الميدان يومها، هي في اقتناعي ليست علامة تخلف أبدا، وإن كانت راجعة إلى الحالة الفطرية التي يتشارك فيها الإنسان مع الحيوان، باستثناء الخنازير المدجنة، وإلى حدٍ ما معظم الحيوانات التي دجنها البشر مقابل الحماية وتوفير الطعام، مستبعدا منها الحيوانات المروضة والتي تظل تفترق عن تلك المدجنة بأنها لا تتناسل في الأسر، سواء في حدائق الحيوان أو أقفاص حيوانات السيرك. وهي ما أن تفلت من

نير عبودية السياط وقضبان الأقفاص حتى تعود كاملة إلى بريتها، يخوض ذكورها معارك ضارية دفاعا عن حياض إناثها، كما عن نطاقات عيشهم.

وبصراحة، أشعر بالزهو لأن غلو غيرتي هذه تخرجني من زمرة الحيوانات المدجنة التي من أهم علامات تدجينها عدم غيرة ذكورها على إناثها، إضافة لقلة الحيا في الوصال على مرأى ومسمع من السابلة، والإذعان لضربات العصي ولسع السياط مقابل اللقمة والمأوى.

وأكثر وأهم من ذلك، اكتشافي أن الغيرة الذكورية على الأنثى ليست مسألة فطرية «بدائية» كما يتصور كثير من المثقفين المُتحررين الأنتلجينسيين الأناركيين الأفانجاردستيين الإيليت. فكاتب بحجم فيدور دوستوفيسكي، وهو من هو في سموه الإبداعي والإنساني والفكري والروحي، كان يغار على زوجته إلى درجة مذهلة يمكن أن توصف بالحُمق أيضا. لهذا كنت سعيدا جدا وأنا أكتشف نوبات حُمقه البديع ذاك في أثناء قراءتي لمذكرات زوجته الوفية «آنا جريجوريفنا» أو «آنا دوستويفسكي»، وأثناء قراءة سيرته الموسعة التي كتبها هنري ترويا. لقد جعلني هذا الكاتب العظيم أعتز بغيرتي التي يَعُدُّها البعض حماقة في مثل سني. فقد كانت حماقات غيرة دوستويفسكي تتفجر وهو في سن مقاربة لسني إلى درجة الاستعداد للعراك والاشتباك بالأيدي غيرة على أنثاه، وهو من هو في سجل كُتاب الإنسانية العظام، بل الأعظم في رأيي.

المهم. قبل أن أصل بدراجتي العزيزة إلى قلب ميدان الثورة

النابض، أي صينية التحرير، اكتشفت أنني قطعت مئات الخطوات من دون أن أكون في حاجة لهذا التشبث بوضع الدراجة المكبل لزوجتي ولي، والمبطئ بالضرورة لخطوينا. وإن كانت هي في طلاقة الشعور بالتحرر الثوري مستمتعة بهذه الغيرة، ومبسوطة بوجود يديَّ الحارستين على كتفيها، لما يوحي به ذلك من رومانسية شبابية في مثل عمرينا. كان وجهها يتألق ببهجة مزدوجة. ثورة وحب. اثنان في واحد. وربما لذلك بوغتت بتركي لكتفيها فجأة عندما لمع في خاطري الاكتشاف وصحتُ سرورا ودهشة «الله؟!»، ورفعت ذراعي مفتوحتين في الهواء. التفتت نحوي بوجهها النشوان بالمسرة والمُباغَت بالتَرك، تسائلني من دون أن تتكلم: ما الأمر؟! ولم تكن هناك فرصة لأبوح لها بسر اكتشافي الذي جعلني أفلت كتفيها وأحررها وأحرر نفسي في ذلك الزحام التاريخي في ميدان يناير. وهي لم تُلِح على إجابة فقد كانت سعادتنا لا تحتمل التوقف للحديث، ثم إنه كان مستحيلا أن نتبين صوتينا مهما أعليناهما في خضم هدير الحشود.

ببساطة ووضوح، وكأنما برقٌ أضاء ذهني، اكتشفت أنه ليست هناك أي ضرورة لهذه التكبيلة التي أتحاشي بها احتمالات تفجر سورات غيرتي. فالميدان الزاخر بهذا الحشد المليوني حيث لا موطئ لقدم، كان ميدانا سماويا على الأرض. فتسامي الحالة الثورية أحال المُحتشدين في ساحته إلى إلى كائنات مرهفة رهافة فوق بشرية. رهافة خارقة تجعل كل المتحركين في هذا الميدان يحترم كل منهم الحيز الشخصي للآخرين وبحساسية كمبيوترات

حيَّة وحييَّة مذهلة الدقة. مئات الآلاف محشورون في ميدان واحد، ومع ذلك يراعي كل منهم الآخر بشكل لا إرادي عجيب. فكل يوسع للآخر حتى يمر من دون أن يمسه، خصوصا لو كان من يمر أنثى. ورحت أفكر في ضوء هذا الاكتشاف لو أنه أمكن تصوير حركة المحتشدين في الميدان بطريقة رقمية تحلل حركة كل فرد كنقطة. نقطة تدور أو تتقدم أو تنعطف متناغمة مع دوران أو تَقدُّم أو انعطاف كل نقطة في الجوار، لتبينا أعجوبة من أعاجيب الحس البشري عند تساميه. وهل كانت تلك الأيام الثمانية عشر في ميدان يناير إلا نوعا من التسامي؟ هذا تساؤل توكيدي، لكنه فيما يتعلق بالقصة التي أشرع في سردها أنتقل إلى اكتشاف تالٍ، يتعلق بتفسير يطرحه السؤال: لكن ما هو السر وراء الارتقاء البشري في هذه الحالة؟

لم يكن المحتشدون في الميدان وقفا على طبقة واحدة أو طيف واحد من المصريين. لا على نسق تعليمي أو ثقافي أو حضاري واحد. فكل مصر كانت هناك. أبناء وبنات الأحياء الموصوفة بأنها راقية كالمهندسين والزمالك وجاردن سيتي ومصر الجديدة، و بنات وأبناء الأحياء الشعبية كالسيدة والحسين وقلعة الكبش وبولاق وشبرا والدرب الأحمر. كما كان هناك أبناء المناطق العشوائية وبعض أبناء قرى الجيزة والقليوبية اللصيقة بالعاصمة، إضافة للقادمين من مدن وقرى الدلتا والصعيد. الملامح وأنماط الثياب وتسريحات الشعر والأحجبة وحتى النقابات والأسدلة، كلها كانت تنطق بالأصول الطبقية المختلفة لمئات آلاف المحتشدين في

الميدان يهتفون بالشعارات الثورية ذاتها ويشدون بأغاني الثورة. شيء مشترك كان يجمع بينهم، حرص على التهذيب والنظافة وتقدير الآخرين والاعتزاز بالذات. هو ذاك: الاعتزاز بالذات، الشعور الشخصي لدى كل إنسان بكيانه المتفرد والمفعم بالكرامة، وفي الوقت نفسه الشعور بتفرد وكرامة الآخرين من حوله، ثم شعور الكل في واحد والواحد في الكل. منظومة كاملة متناغمة في معزوفة شاملة من الفرح برغم الشدة وقلق الترقب، ابتهاج إنساني لحشود تشعر الآن بأنها الأقوى، وهي تستعيد كرامتها من حفنة في الحكم كانوا يتصرفون وكأن هذه الملايين كلها لا أحد.

استباحة. هذه هي الكلمة الواحدة التي يمكن أن يندرج تحتها كل ممارسات السلطة التي انفجرت التظاهرات في وجهها وجعلتها تتراجع، وتشعر بضآلتها برغم كل أدوات التسلط التي كانت في حوزتها. هي الآن منكمشة، بينما الحشود تتمدد وتهدر مثل فيضان جارف، تعلن بجمعها الهائل وهديرها «نحن هنا»، وتشعر بالبهجة في كينونتها المُستعادة، ومن هذه البهجة تتوالد عروض تلقائية مزهوة بالفرح. مسرح حي ومتحرك وسط زحام الميدان الثائر يقدم مَشاهِده مع كل خطوة نخطوها معا عبر حشود الميدان، زوجتي وأنا.

نتابع ببهجة واندهاش ما نشاهده، ونتبادل البهجة والدهشة بملامحنا وإيماءاتنا مع الآخرين. لم يعودوا آخرين. صاروا نحن. كلنا نحن. هذا شاب طال شعره وتراكم مثل عش كبير يسكن فيه وجهه الأسمر دقيق الملامح المرحة، علق في رقبته لوحة ورقية تتأرجح على صدره مكتوب فيها «امشي بقى عايز اروح احلق».

وآخر يرفع فوق رأسه لافتة مكتوب فيها «متجوز من ٣ أسابيع ومراتي وحشتني. امشي خليني اروح». وثالث يرفع لافتة ورقية يقول فيها «الولية عايزة تولد والعيل مش عايز يشوفك.. امشي». وكانت الصيحة الشاملة تنطلق هادرة ومحلقة في سماء الميدان كل حين، كأنها تحاذر السهو وتتعوذ من الاسترخاء والكسل «مش هانمشي. هوَّ يمشي». وظلت مشاهد هذا المسرح المتحرك البهيج تتوالى أمام عيوننا فيما كنا نتحرك نحن أيضا ونبتهج، إلى أن لمحته: الكرسي. «محمود الكرسي» ولا أحد غيره، فانقبض صدري وتبدد انشراحي، وعاودني ذلك الشعور بالخزي أمامه، والذي كنت أتصور أنني نسيته منذ شهور.

* * *

كان هو ولا أحد غيره، بمشيته العجيبة التي اكتسبها بعد واقعة منطقة البورصة. محمود الذي غيرت تلك الواقعة اسمه من «محمود أيَامَه»، إلى «الأستاذ محمود»، ثم «محمود الكرسي» في النهاية. تحول بمخرجات هذه الواقعة بين رواد مقاهي شوارع المشاة في منطقة البورصة أو الشريفين بوسط البلد، من مادة للضحك الودود إلى مثير للمرارة الساخرة، والتي لم تكن عندي إلا مرارة محضة، لا تتعلق بما حدث لمحمود بل تتعلق بما أحدثه ما حدث لمحمود داخلي. مرارة شخصية مكثت أخشى الاعتراف بها كشعور داخلي ليس بالذنب فقط، بل بالعار، وكنت أتصور أنها طُمرت وتوارت في داخلي. لكن ما أن وقع بصري عليه يمر كطيف عابر وسط الحشود الفوارة، حتى أحسست بالخمود والابتئاس. طيف طالما

حاولت إبعاده عن خاطري بالابتعاد عن مكان أو أماكن وجوده، لعله يتلاشى في داخلي ويتلاشي تأثيره. لكن ها هو ذا يظهر لي في ثنايا هذا العيد المليوني الحار فأنطفئ وتنطفئ بهجتي بالوجود مع شريكة حياتي في ميدان ثورة البهجة هذه. وتلاحظ هي برهة انطفائي فتسألني: «مالك؟»، «ولا حاجة» - أجبتها. لكنني كنت أحوج ما أكون إلى «أي حاجة» تنسيني ذلك الشعور السلبي الذي يداخلني كلما تذكرت محمود، وها أنذا لا أتذكره فقط، بل أراه، فأرى كل ماكان.

* * *

منطقة «البورصة» أو الشوارع المحيطة بمبنى البورصة العتيق والإذاعة القديمة في الشريفين، بعد أن صارت منطقة للمشاة، مغلقة فوهات الشوارع بسلاسل ثقيلة تتدلى من أعمدة حديدية خفيضة فخيمة، تأنق منتصف شوارعها المرصوفة بالبلاط الناعم بجزر خضراء يشرئب فيها نخيل ملكي وتسيجها أسوار من الحديد المشغول بأناقة. شوارع متقاطعة ومتداخلة ومرصعة بأعمدة إنارة كقطع فنية من الحديد المصبوب. صارت واحة وسط هجير قلب القاهرة الذي يهرسه سيل السيارات وتطحنه ضوضاء المرور وزحام البشر. الكثير من محالها الصغيرة الغائرة مقارنة بأرض الشوارع التي ارتفعت بفعل الرصف المتكرر عبر عشرات السنين ثم التبليط الجديد، صارت مقاهي تنشر أغلب كراسيها في الشوارع أمام أبوابها، تحولت إلى منطقة استجمام قاهري مُيسَّر أمام المثقفين والفنانين المغمورين وبعض المشاهير ومحبي التغيير والشباب الرافض، لقاء

أسعار معقولة للشاي والقهوة وغيرها من المشروبات. وكانت هناك الشيشة بالطبع لزوم الاسترخاء في هذه الواحة التي لم يكن يكتمل نعيمها إلا بأنفاس معسل التفاح والعنب والبرتقال والنعناع ذات النكهات والأدخنة عطرية العبق. ومع مرور الوقت على تخصيص هذه المنطقة للمشاة خبت فورة «الصرعة» لدى محبي التغيير وتذوق طعوم المناطق «الأوريجينال» حتى لو كانت متواضعة المشاريب والمناضد والمقاعد التي كانت كلها تقريبا من كراسي البلاستيك الملون، أبيض وأحمر وأخضر وأصفر وأزرق وبعضها بنفسجي وبرتقالي أحيانا. مهرجان ألوان يغطي بلاطات هذه الشوارع الصغيرة المتقاطعة التي لا تدهمها السيارات. ومع الوقت بدأ بلاستيك الكراسي اللامع يتسخ وينطفئ ومفارش المناضد تتبقع وتحولت هذه الواحة إلى ركن من أركان المثقفين الفقراء وأولاد البلد الذين يأتون من الأحياء الشعبية ليجربوا مقاهي لا تختلف كثيرا عن مقاهي أحيائهم الفقيرة وإن كانت في منطقة «أبهة» في قلب القاهرة. ومن هؤلاء جميعا تكوَّن زبائن دائمون يشكلون جماعات للصحبة بعضهم ممن لا يعملون في وظائف محددة، يأتون في الصباح وفي المساء. ومن زبائن المساء كان «محمود أيامه».

معظم رواد منطقة البورصة كانوا يعرفون محمود جيدا لكنهم لا يعرفونه على وجه التحديد. شاع أنه «محامي»، وتردد أنه ليس كذلك بل مجرد كاتب محامي. وذهب بعضهم إلى أنه ليس هذا ولا ذاك فهو لا يعمل ويُحكى أنه كان طالبا في السنة النهائية بكلية الحقوق منذ سنوات بعيدة عندما تم اعتقاله في إحدى حبسات اليساريين، أو

الإخوان، لا أحد يعرف. وهو لم يكن يساريا ولا إخوانيا في إحدى أكثر الحكايات إقناعا مما يتناثر عنه، بل واحد من الأبرياء السذج ممن تكررت معهم الحكاية النمطية: يرى وهو يمر أمام أحد مباني المباحث العامة شابا يعرفه من شارعهم ينزلونه من سيارة بوكس ويدخلونه مكبلا إلى المبنى، فيتبعه مستنكرا أن يعتقلوه ويكبلوه كمجرم بينما يعرفه كإنسان مهذب ولا يؤذي أحدا. وما أن يدخل ببراءته وشهادته ودفاعه عن ابن حتته حتى يصير مشبوها، بل متهما بالانتماء للتنظيم السري الذي يتبعه أو يُتهم بأنه يتبعه ابن حتته الذي أراد الدفاع البريء عنه. هكذا خرج محمود من المعتقل بعد خمس سنوات، ليجد نفسه مفصولا من كليته وفقيرا ومعدما وبلا عمل ولا أسرة. وظل يعيش على إيجار ضئيل لبيت تركه له والداه المتوفيان بإحدى مدن الصعيد. ولا بد أنه تلقى صدمة عاطفية ما لأنه ظل يكبر دون أن يتزوج حتى بلغ الخامسة والأربعين.

كان يظهر بسمرته ونحافته المفرطة وطوله الملحوظ مع نسائم العصاري التي تتلقفها شوارع البورصة المتقاطعة عند المفارق، كأنها خُططت منذ عقود لتكون ملاقف أو مصائد للهواء في قلب القاهرة الذي صار يعز فيه الهواء، وعند هذه المفارق حيث يهب النسيم كان يحلو للصحبة الجلوس. يبدأ واحدهم في المجيء ويشغل مكانا في هذا «الملقف» فيصير بمثابة نواة تتجمع عليها بقية الصحبة. كانوا أصحابا من دون أن يعرف أحدهم أين يسكن الآخر أو يعمل أو من يكون، ومع ذلك يبدون مترابطين كثيرا في لمتهم. وكان محمود يقبل أو يقبل عليه الآخرون فتُسمع التحايا التي يبادرونه بها «أهلا أيامه»

«مسا أيامه»، «أهلا» - لم يكن يجيب التحية بأكثر منها عند قدومه الرائق المشدود، أو أثناء جلوسه المشدود الرائق كذلك. متأنق دائما تلك الأناقة المفرطة البائسة، في بدلات قديمة تكاد تكون متهرئة من فرط التنظيف والكي، وقمصان قديمة الطراز مغسولة ومكوية بقسوة تحاول عبثا إخفاء بِلاها. أما ربطات العنق العريضة ذات الخطوط المائلة القديمة والألوان الفاقعة فكانت مُحكمة الربط والضبط، وحذاؤه «البانص» لامع ولا يكف عن تلميعه برغم إيغاله في القِدم الذي تفضحه لمسات الترقيع المتكررة التي لم تكن تحتاج إلا قليلا جدا من إنعام النظر لاكتشاف كثرتها. يأتي «حسني ورنيش» ماسح الأحذية المعتمد لهذا الركن من مقاهي البورصة فلا يخلع محمود حذاءه ويسلمه لحسني ويريح قدميه على قطعة كرتون يبسطها «ورنيش» ريثما يُنهي تلميع أحذية مجموعة من الزبائن، معا. بل ينفرد «أيامه» بأنه يظل لابسا حذاءه بينما «ورنيش» يُلمِّعه له قدما من بعد قدم وهو يقرأ جريدة الصباح عند الغروب، حتى يضرب حسني على صندوقه بكعب الفرشاة «تمام أُأزداز». كان لا يقبل من غير صحبة الجلسة أن يناديه أحدهم بغير كلمة أستاذ. أما «أيامه» فقد كان يسمح بها من أصحابه لأنها كانت تعزز إحساسه بأناقته ووقاره، وقد كان يقضي أياما عديدة من جلسات البورصة هذه والتي تمتد من بعد العصر وحتى وقت انصرافه في العاشرة مساء من دون أن ينبس بكلمة. يومئ. أو يشير بإشارات صغيرة. فلم يكن في حاجة لأكثر من ذلك في نظام ثابت لم يخرج عنه منذ عرف المكان وعرفه المكان.

كان يأتي «فينزل» أمامه كوب «الميه الساقعة»، وبعد نصف ساعة

يأتي كوب «الشاي فتلة» الذي يدخن معه سيجارة كليوباترا سوبر يتعامل معها بأبهة وتؤدة كأنه يدخن سيجارا. وكوب الشاي الثاني والأخير يكون بعد أذان العشاء. لا يدفع يوميا لكن «على النوتة» كل أسبوع. ولم يكن في حاجة لاستخدام الكلام في طقسه اليومي المكرر، لهذا لم يكن هناك كثيرون من رواد المكان يعرفون صوته، حتى ذلك اليوم المشهود الذي عرف فيه الجميع، ذلك الصوت الذي ارتجفت له الواحة؟!

* * *

نعم واحة، واحة ليست في قلب صحراء جرداء ولكن في خضم هجير من الضوضاء والزحام. زحام ولا أحد. واحة قاهرية لا تُقلق ساكنيها حركة السيارات ولا جنون الأرصفة التي تشغي بالزحام والباعة الجائلين الذين حطوا رحالهم على الأرصفة. واحة تتقاطع شوارعها وتتناسق هندسة الأبنية العتيقة الراسخة فيها لتشكل معا شبكة مدهشة من مصايد الهواء. لهذا يلعب بين جنباتها دوما نسيم لطيف لا تعرف من أين يهب ولا كيف يجتلب طراوته وابترادَه. كأن الأبنية العتيقة على رءوس الشوارع هي التي تتخطف النسائم النادرة وتدفعها في فوهات هذه الشوارع لتعيد التقاطعات توزيعها توزيعا محكما كما تكييف مركزي طبيعي تحت سماء مفتوحة، تشمل النسائم بترويحها العذب كل الزوايا وكل الامتدادات وتداعب وجوه وصدور مرتادي المقاهي المنتشرين في تلك الدروب الرحيمة الآمنة من دهس السيارات وسعار باعة الأرصفة وتهافت المتسكعين.

لكن هيهات أن تدوم السكينة في هذه الواحة، فكما في كل

واحة ثمة عواصف وجوائح وهجمات وحوش تهب عليها من جوف الصحراء المحدقة بها فتحيل سكينتها إلى اضطراب، وأمانها إلى ذعر، واطمئنان أهلها إلى قلق مقيم. هذه الواحة القاهرية بدلا من أن تهب عليها عواصف رملية تهدد زرعها وضرعها، أو سحب جراد تحيل خضرتها إلى موات وصفرة، أو قطيع ذئاب يقتنص أغنامها ويعقر البشر. بدلا من ذلك كله تهب عليها عاصفة وجائحة ووحوش تتلخص كلها في كلمة واحدة: «الحملة». وهي ليست حملة واحدة بل حملات لا توقيت لها ولا توقُّع ولا انتظار ولا بوادر ولا تبرير إلا أن أفراد هذه الحملات ومحركيها ومحركي محركيها يدفعهم شيء واحد لتحريكها وهو: الابتزاز، ولا شيء غير الابتزاز. فمقاهي المنطقة مرخصة، ونشر كراسيها في المماشي منطقي طالما لا يعيق حركة المارين في الطرقات، فنشر الكراسي يظل محكوما بترك دروب مفتوحة كفاية لمرور الناس. فجأة وفي ذروة الوقت الذهبي عند الغروب، تهجم الحملة! يربدُّ الجو وكأن عاصفة سموم تجتاح المكان، أو سرب جراد يحل، أو قطيع ذئاب يهجم. يتكهرب المكان عندما يُباغَت مرتادوه باقتحام سيارة بوكس تتبعها سيارة نصف نقل ساحة هدأتهم، كأنها تسقط عليهم من السماء أو تهبط من المجهول، من دون صوت، ثم يدوي هديرها على الأرض. يَجمُد الركن الذي وقع عليه اختيار الهجمة وتنحبس الأصوات، وسرعان ما يبدأ الهجوم. يهبط المخبرون من صندوق البوكس قفزا، وبدفعات سريعة عنيفة وتلويح بالخيزرانات يزيحون الزبائن عن كراسيهم ويقذفون بالكراسي إلى صندوق النصف نقل.

تلجم المُباغتة أفواه الزبائن ويخرسهم الخوف فيما يتوسل صاحب المقهى أو يزمجر، دون جدوى. لا إبراز تراخيص المقهى ولا تصريح نشر الكراسي أمامها يوقف الهجمة، ولا شيء يعيد المكان إلى سلامه إلا في اليوم التالي أو الأيام التالية عندما «يُبرز» صاحب المقهى و«يُنجز». يدفع المعلوم ويستعيد كراسيه ليستعيد المكان سلامه حتى إشعار آخر. حملة أخرى.

كنت واحدا ممن أُزيحوا عن كراسيهم في اثنتين من هذه الهجمات، وشهدت ثلاثا بقرب المكان الذي كنت أجلس فيه. ولم أكتشف أنني أذعنت وأُلجمت وأُخرست كما كل الذين حدث لهم ذلك إلا عندما سمعت صوت «محمود أيامه» في ذلك اليوم المشهود. كأنه صوت أسطوري يسقط من فضاء الملاحم التاريخية ليقصف ويُرعد: «لأ، يعني لأ». بدا صوته الذي كنت أسمعه لأول مرة كما كثيرين من رواد المكان، هادرا وعميقا. ثم تواصل صوته الملحمي هذا بينما اجتمع عليه أكثر من مخبر يحاولون إزاحته، بل إسقاطه عن كرسيه: «تصرفكم مش قانوني. أنا عارف القانون ومش ها اسمح لكم. أبدا مش ها اسمح». ويبدو أن موقفه الاستثنائي في عدم الإذعان أربك المخبرين الذين تركوا كل شيء وتفرغوا له. برق في عيونهم الشر وحمي في قبضاتهم وخيزراناتهم وطيس الفتك. لكن استمراره جالسا مشدودا في كرسيه بأناقته العتيقة وربطة عنقه المحكمة وحذائه اللامع، كل ذلك مع هدير صوته العميق والكلمات الكبيرة عن «القانون» و«الغير قانون» يبَّس حركتهم، لكن رئيس الحملة الذي كان يراقب الموقف وهو جالس

في كابينة البوكس كان له رأي آخر. كان في ملابس مدنية ويرتدي نظارة ريبان سوداء برغم حلول المساء وتبدو عليه ثقة أصحاب السلطة وعافية شاب ثلاثيني رياضي الهيئة. أزاح تراكم الواقفين في صمت، وأنا منهم، وأفسح له طوق المخبرين حول محمود المتشبث بكرسيه فرجة، ليواجه «الباشا» هذه الحالة المستعصية التي وضح أنهم لم يواجهوها من قبل. وقف الباشا على رأس محمود الجالس مشدودا وملتصقا بكرسيه وسأله: «معاك بطاقة؟»، وإذا بمحمود يجابهه «اظهر لي أولا كرنيهك اللي يعطيك الحق في توجيه السؤال ده». وكاظما غيظه رد رئيس الحملة المحنك برغم شبابه «معنى كده إن ما معكش بطاقة تعريف شخصية. اتفضل معانا». لكن محمود أشاح بوجهه عنه، ولم يتفضل. وهنا أظهر لابس الريبان السوداء في الليل سطوته: «حطوه في البوكس». ولم يستطع المخبرون وضع محمود في صندوق البوكس خفيض السقف لعجزهم عن تخليصه من الكرسي، ولسبب غامض لم يستخدموا الضرب لإبعاده عنه. ظل مشدودا وممتعضا مما يفعلونه يردد بصوت واثق: «باحذركم. باحذركم. لسه في البلد قانون. لسه في البلد قانون». وكان أن صرخ فيهم لابس الريبان من مقعده في كابينة البوكس «ارموه بكرسيِّه على ضهر السوزوكي وشددوا عليه الحراسة». واكتمل المشهد بذروة أسطورية بالفعل.. تكالب المخبرون يرفعون محمود في كرسيه عن الأرض إلى صندوق النصف نقل وهو يردد «دي بلطجة. دي بلطجة. والقانون هايوقفكم عند حدكم». وكان مظهره المشدود برغم هزلية المشهد

يديهم حريصين أشد الحرص على عدم المس به وإن راحوا ينفذون أمر رئيسهم..

رفعوا الكرسي بشاغله عن الأرض «مناولة» حتى لا يميلوه أو يوقعوه. وعندما وصلوا به إلى ظهر السوزوكي وضحت خشيتهم من إلقائه كيفما اتفق كما يلقون بالكراسي المصادَرة هناك. وكانت ذروة المشهد عندما تزاحمت أجساد المخبرين وأياديهم ترفع الكرسي متوازنا ومحمود على استقامة جلسته فيه. بل اتضح لنا نحن المتجمهرين صمتا في المكان أنه ظل طوال الوقت واضعا ساقا على ساق ويرنو باعتزاز نحو الأفق بينما كرسيه يرتفع فوق الأعناق، أعناق المخبرين وهم يرفعونه ليودعوه دون إصابات على ظهر النصف نقل حيث كان هناك اثنان منهم يتلقونه في الأعالي. ثم لحق بهم ثلاثة آخرون ليحيط الخمسة بمحمود جالسا على كرسيه الذي كان من البلاستيك البرتقالي المتوهج، ولم يُخْفِ هبوط المساء سطوع توهجه. وانطلق البوكس في عصبية ومن ورائه النصف نقل وعلى ظهرها محمود على كرسيه. كان الكرسي الوحيد الذي صودر من المكان على غير عادة الحملات، فقد أفشل «أبهة» هجمة الحملة. مكثنا للحظات مديدة ساكنين وساكتين وكأننا جمدنا وخرسنا في أماكننا. ثم تبعثر جمعنا الصامت متوزعا على الكراسي الناجية في المكان. ومن الغريب أن غرابة ما حدث لم يُنشئ موضوع سهرة من الأحاديث فيما بيننا. وسرعان ما انسحبت أنا تحت سماء الليل القاهري الضاج بالضوضاء والمحموم بالزحام. لكنني كنت أستشعر طوال الوقت هبوب نسائم طرية

أسيانة تشعرني بحزن عميق. ولم أكن أتصور بعد ذروة المشهد الذي رأيته أن هناك ذروة أخرى، لكنها كانت...

* * *

شيء ما تغير في واحة البورصة بعد مغادرة محمود أيامه الأسطورية لها. كان الصمت هو عنوان ذلك التغيير، كأنه امتداد للصمت الغريب الذي هبط علينا وعلى المكان مع الليل بينما الحملة تنقشع في صمت، ومحمود يتنكبها معتليا عرشه من البلاستيك الأحمر البرتقالي وسط كوكبة المخبرين الذين يحرسونه صامتين. صمت يبدو لي الآن كما لو كان سحريا فرضه صوت محمود الذي كان كأنه يلقي بتعويذة سحرية تختبئ في كلماته عن القانون وخرق القانون. وبرغم مرور شهور على جلجلة هذه التعويذة، ظل الصمت متلبسا روح المكان. حتى عندما بدأ فعل مرور الوقت وقدر النسيان يعيدان الأصوات إلى فضاء المكان لمدافعة الوحشة، كانت الأصوات مفعمة بروح الصمت بشكل يمكن إحساسه لا رصده. ولم يكن هناك من دليل على هذا الصمت الكامن في قلب الأصوات إلا هذه اللحظة الشاملة التي اجتمعت فيها أصوات كل رواد المكان على صوتٍ هاتفٍ واحدٍ عند الغروب بعد ما يقارب ثلاثة الأشهر: «محموووووووووووووووود». فقد عاد محمود من غيبته الطويلة الغامضة المخيفة. لكن صوت الهتاف باسم العائد سرعان ما انطوى على نفسه في ذهول. فمحمود أيامه عاد متحولا إلى صورة تُضحك وتُبكي، فقد ذهب مرفوعا على كرسي فوق الأعناق، وعاد كرسيا يمشي على الأرض؟!!

تصور الذين هتفوا باسمه وقوفا وحبورا ودهشة أنه يتخذ وضعا مازحا يلاقيهم به بعد الغياب. لكنه لبث على هذا الوضع الغريب المضحك المبكي، وضع إنسان يتخذ شكل كرسي حي يمشي على رجلين، مقرفصا في مشيه نصف قرفصة وجذعه قائم على هذه القرفصة، كأنه يمشي في وضع الجلوس على كرسي تمت إزالته من تحته بطريقة ما، فصار ككرسي يمشي على رجلين. لم يكن يمزح، بل ظل على عهده من صرامة الفقير المعتد بنفسه اعتدادا مبالغا فيه يعادل مبالغات إذلال الفقر وقلة الحيلة والهوان على الناس، بعض الناس. وكان كما كان برغم ما ألمَّ بقوامه الطويل النحيف مفرط النحافة، في بذلته القديمة المكوية بعنف وإلحاح يواري سوآتها، وربطة عنقه المحكمة العتيقة العريضة فاقعة الألوان، وجزمته البانص مفرطة اللمعان الذي يحاول لمعانها إخفاء ترميماتها البائسة. ظل يتردد على الواحة بإيقاعه القديم ذاته وطقوسه المنتظمة ذاتها. يجلس في الزاوية ذاتها وكأنه كرسي يدخل في كرسي. كوب الماء البارد عند الحضور في العصاري، كوب الشاي الأول بعد نصف ساعة، تلميع الحذاء دون خلعه وقراءة جريدة الصباح في المساء، وكوب الشاي الثاني بعد أذان العشاء، ثم الانصراف في العاشرة. لكنه في هذه العاشرة الجديدة ينصرف ككرسي يغادر كرسيا ويمضي ماشيا على رجلين في كبرياء. كبرياء مريرة مكثت أرها في صورته الممسوخة، وكنت أتساءل كما غيري: من مسخه، وكيف مسخه؟

* * *

لم يحظ أحد من محمود الذي صار يُشار إليه همسا بلقب «محمود كرسي» بما يشي بسر مسخه على هذا النحو، وكيف تيبس جسده على هذه الصورة، وهل تيبسه هذا قابل للانحلال أم لا؟ أسئلة ظللت أبحث لها عن إجابة دون جدوى. وكان منظره ماشيا بهذه الهيئة يبعث في داخلي قشعريرة وإحساسا بالخزي الشخصي يخصني ولا يخصه. برغم منظره الجديد العجيب رحت أراه رجلا، رجلا دافع عن كرامته بصلابة عندما أرادوا إذلال صلابته، لم تنكسر روحه وإن تكسر جسده وتيبس على وضع تكسيره. ولم أحتمل ذلك الشعور الممض بالخزي كلما كنت أراه، فهجرت جلسات البورصة التي تحولت من واحة في خاطري إلى هجير خارجي وداخلي. هجير مهين يجتر ذكرى إذلالات الحملة وحملات مماثلة ظلت تصفعنا في كل مكان حيث يتموضع أو يُباغِت الحكم السابق، لهذا كان فرحي بانفجار الثورة في وجه هذا الحكم فرحا خاصا بإمكانية خلاصي من شعور ممض ومزمن بالإهانة، بالعار. لكن وقوع بصري على محمود أيامه يشق طريقه بين حشود ميدان التحرير ككرسي يمشي على قدمين باعتزاز، أرجعني إلى الخلف ثانية، حيث يستبد بي ذلك الشعور بالعار. وكما غادرت منطقة البورصة دون رجعة لأنسى أو أتناسى ذلك الإحساس المشين، قررت أن أغادر الميدان فورا. ودون وعي شددت يد زوجتي لأمضي بها في طريق الخروج نحو كوبري قصر النيل، وإذا بالدنيا يغيم سطوع ظهيرتها فجأة، وينعقد الجو، ثم تسود المدى أهوية باردة مفاجئة

سرعان ما سكنت، وينهمر مطر غزير مباغت، فألوذ مع زوجتي بإحدى خيام المعتصمين.

* * *

كانت الخيمة لمجموعة من شباب وشابات مصابي الثورة، تحيط أرجل وأيادي بعضهم الجبائر وتغطي الضمادت إصابات رءوس وأعناق بعضهم. وثمة شاب كانت ضمادة مدورة ومربوطة على رأسه تغطي جرح عينه التي فقدها. وكانوا يغنون مع شاب ضرير يعزف على عوده: «يا مصر هانت وبانت كلها كام يوم». لم يكونوا مُضعضَعين بإصاباتهم. حتى ذلك الشاب الذي فقد عينا من عينيه كان ضحوكا ورائقا إلى درجة مدهشة. أتذكر أنهم كانوا ينادونه «جواد». كان جوادا جميلا للغاية لم تكبُ روحه برغم إصابته الجسيمة، وظل مضيئا ويضحك. لم يستغربوا دخولي مع زوجتي عليهم، وبذلك الانتقاء الغريزي وجدت زوجتي تنتحي إلى جانب البنات، فيما أنا بين الرجال عند طرف الخيمة. واستدرجنا الغناء إلى ساحته الصغيرة المشعة باتساع. وبينما كنت أغني جاشت نفسي بتأثر، تذكرت محمود وتشوه جسمه الذي لم يهزم روحه. وفي غمرة جيشان عاطفتي بفعل ذلك الغناء رحت أشعر بالتعاطف مع نفسي وأنتبه لبهاء الغفران. لماذا يظل ذلك الشعور بالعار وصمة لأنني سكت حيال استباحة تصورت أنني غير قادر على مجابهتها. الله غفور رحيم. فلأرحم نفسي. ولأبحث عن محمود الذي صار كرسيا يمشي على قدمين بكبرياء وأواجهه ممتلئا بتلك الرحمة. أشرت لزوجتي وغادرنا خيمة

الجرحى المُغنين، وبدا الميدان أقل ازدحاما وأنا أطل عليه من مرتفع «الصينية» أو «كعكة التحرير»...

كانت زوجتي طيعة تسلمني يدها وأنا أهرول تحت الرذاذ، ثمالة المطر التي كانت تبلل بخفة وصفاء ثمالة الغناء الذي شدونا به مع الأولاد والبنات المصابين في الخيمة، وكانت تضحك بينما خطواتي المسرعة تسحبها سحبا «مالك بتجري كده. هوه القطر هايفوتك»! ذِكرها للقطار جعلني أستعيد بهجة طفولة بعيدة كنا نتقاطر فيها ممسكين بذيول قمصاننا وذيول فساتين البنات، مهرولين كعربات قطار بشري غض طويل يصفر «توت توت. توت توت» ويمضي في معارج ممتدة وملتفة من حبور وخيال. وإذا بي أدور وأستدير على زوجتي، أردفها مادا ذراعي ممسكا بكتفيها أمامي. وضع يناظر وضع الدراجة الذي دخلت بها فيه إلى الميدان، لكنني أخرج بها منه الآن. وقد صرنا قطارا من عربتين ماثلتين وعربات عديدة غير مرئية. لم أكن أمشي بل أهرول في المدى الذي أفسحه المطر داخل الميدان، متجها بها إلى كوبري قصر النيل جذلان وهي في نشوة، لتذهب هي إلى البيت أما أنا فسأبقى. أتذكر غيرة دوستويفسكي الشديدة على زوجته آنا، فلا أهمل الآن أنها كانت جزءا من غيرة شاملة، على العدل العام وكرامة الجميع والحرية الإنسانية. كانت غيرة غير مبتسرة، تُحقِّق باستباق عقود وعقود توصيف إريك فروم للحب الحقيقي، «الحب المُنتج»، الذي تكون فيه غيرتنا على أنثى محبوبة جزءا من غيرتنا الشاملة على قيم تستحق الحب وبشر وكائنات لهم نصيب في هذا الحب. دوستويفسكي عاش ذلك بالفعل إلى

درجة وقوفه أمام فريق الإعدام القيصري، ثم عاشه سجينا في منزل الأموات، منفاه الجليدي القارس، لهذا استحق أن يغار على أنثاه ولو إلى درجة الحماقة التي تعكس منتهى براءة القلب الكبير. وها هي ذي أنثاي التي أغار عليها بين يدي، أخرج بها من الميدان الذي سأرابط فيه باحثا عن «محمود الكرسي» ببصيرة جديدة. سأذكّره بنفسي: «أنا أحمد سليمان. اتقابلنا كتير على قهاوي البورصة». سيظل على كبريائه المستحق وأنا أستعيد كبريائي. ها قد اقتربنا من مخرج الميدان قرب مدخل كوبري قصر النيل. تستعيد ساقاي إيقاع حركة قطار الطفولة، وإذا بصوتي غير خجلان من صوت الكهولة يصفر «توت توت. توت توت»، فيما زوجتي تضحك بجذل وتتفلت خجلى كفتاة صغيرة بين يدي، لكنها تظل محافظة على تواصل قطارنا المنطلق تحت الرذاذ الشفيف وعبر هواء الميدان الذي صفا ورَف.

مروحة التراب

كان يقاتل بطريقة غاية في الغرابة، فما أن يشتعل العراك حتى يرتمي أرضا على جنبه، وتأخذ قدماه في الركل والقصقصة كشفرتي مقص مجنون، بينما جسمه كله يدور كمروحة، موجها ضربات قدميه إلى سيقان خصومه الذين يفشلون في مجاراة ضربات قدميه بركلاتهم، فيوقعهم فشلهم في فخ لكماته وهو مستلق على الأرض أيضا. فهم ينحنون عليه محاولين تسديد لكماتهم إلى وجهه وصدره، فيحصدهم. لا يكتفي برد لكماتهم، بل يوقعهم أرضا إن لم يكن بلكمات تفقدهم توازنهم وهم منحنون عليه، فبجذبهم من صدور ثيابهم بسرعة، ويُعرقلهم بمقص قدميه، وما أن يهووا أرضا، حتى يبدأ أجمل عرض لعراك أولاد مدرستنا بعضهم مع بعض أو مع أولاد المدارس المجاورة، بعد انتهاء اليوم الدراسي.

ومهما يكن عدد الأولاد في الخناقة، فإنها تنتهي إليه وحده، وسط دائرة كبيرة من المتفرجين من أولاد الفريقين المتعاركين، حيث يكتفي أنصاره بدفع الخصوم إليه وهو يدور على الأرض مثل مروحة خارقة تثير زوبعة كبيرة من تراب، وتحصد بريشاتها الحية الدوارة سيقان الخصوم. لهذا كان اسمه «رفعت مروحة». وأنا كنت متشوقا جدا لمصاحبة رفعت مروحة، وقد حدث.

لم أكن أتصوره غير مروحة خناقات تدور على الأرض، وسط زوابع التراب والثياب الممزقة والعرق والدم. لكنني اكتشفت أنه قادر على الدوران تحليقا في السماء العالية أيضا. وبين بديع الغيوم

والنجوم. ففي جمعية الخط التي جمعتنا في المدرسة كان يتألق في خط الديواني، تنساب من سن بوصته أقواس الحروف البديعة، وتتناغم هذه الأقواس وهي تهبط سميكة، ثم ترق خواصرها عند الدوران وتعود تتكاثف ثم تشف محلقة عند النهايات الصاعدة. بعد ذلك كان يأتي بأجمل ما يميزه كخطاط فنان. فهو يحتوي الجمل المكتوبة داخل سحابات من أنصاف وأرباع دوائر متواصلة ذات انسجام بديع، وبلون مختلف عن لون الحروف الذي يكون غالبا بلون الحبر الأسود الشيني. سحب ساحرة دائما، سواء كانت بالأحمر الفسفوري أو الأصفر الكناري أو أزرق الفيروز. ولا ينسى أن يُرصِّع محيط سحاباته المحلقة تلك بنجوم خلابة الألوان تومض بارتعاش بديع. وأنا أطريته في كل ذلك، فراح يعلمني بعض أسرار خطوط أصابعه، بينما كانت عين تطلّعي موجهة إلى مروحة أقدامه.

ونحن نتمشى راجعين من المدرسة في يوم خال من وهج وعرق وتراب ودم المعارك، حكي لي رفعت تاريخ اكتشافه لطريقة مروحة الأقدام في العراك. ففي يوم جمعة ذهب مع عيال الحتة في جولة من جولات صياعتهم الأسبوعية، مرة يعبرون الجسر الأخضر إلى الطرف البعيد من المدينة، ومرة يذهبون إلى الحقول في القرى القريبة، يعبرون شوارع وجسورا وترعا، ويختلقون مغامراتهم أثناء تجوالهم الذي يستمر من الصباح حتى حلول المساء. وفي مرة راق لهم ان يستحموا في مياه «الرياح».

كان مجرى الرياح عريضا جدا في المكان الذي توقفوا عنده.

رصيف مرسى نهري ومبنى جديد مغلق أمامه مقاعد أسمنتية. وكان المكان الفسيح يحتمل وجود أولاد من كل مناطق المدينة والقرى القريبة. لكن لم يكن هناك ما يدعو إلى العراك. فالماء في الرياح كان مغريا جدا ويتسع للجميع، وظل يتسع لمزيد من الأولاد وهم يخلعون ثيابهم على البر ويقفزون إلى الماء. صاروا على صفحة المياه مثل سرب بط يلبط ويعوم ويغطس ورفعت الذي لم ينزل معهم إلى الماء وقف على البر يراقب ابتهاجهم المبلل والمغمور بالشمس.

استلفت نظره أن «نبيل» أحد أولاد الحتة كان يغامر بالابتعاد عميقا في عرض الرياح. ولا يعرف ما الذي ألجم لسانه هو، رفعت. كان نبيل يتفاخر دائما بأنه «احسن عوّيم «بين الأولاد كلهم، وقد كان كذلك بالفعل. وربما أن ذلك هو الذي أوقف نداء رفعت في صدره. حتى عندما بدأ نبيل يقب ويغطس. خاف رفعت للحظة. لكنه في اللحظة نفسها كان يطمئنه ما يتكرر عن مهارة نبيل في الغطس والعوم. لكن نبيل غطس غطسة ناعمة طويلة، ولم يعد إلى سطح الماء. وبدأ الأولاد الذين كانوا قريبين منه يخرجون مرتاعين إلى الشاطئ ويرتدون ثيابهم على عجل، من دون حتى أن يجففوا أجسامهم المبتلة. وبدأ أولاد الحتة ورفعت يصرخون «نبيل. نبيل. نبيل». ولم يرد نبيل.

«لازم نبلّغ»، كانت تلك فكرة رفعت وهو يشعر بذنب عميق كما لو أنه مسئول عن غرق نبيل «كلنا مسئولين عن غرق نبيل»، هكذا حشد رفعت بقية الأولاد الذين وافقوا في نوبة تأثرهم على

الذهاب إلى قسم الشرطة للإبلاغ الجماعي عن غرق نبيل، وليكن أن يقبضوا عليهم ويحبسوهم. فقد غرق نبيل، وهم لم يَحوُلوا دون غرقه، كيف كانوا يحولون دون غرقه؟ سؤال لم يطرحوه على أنفسهم، لأنهم كانوا متأثرين وخائفين ويواجهون لغز الموت لأول مرة. وذهبوا جميعا بثياب الغريق، وعلى رأسهم رفعت، للإبلاغ عن الغرق والغريق.

أمام القسم وجد الأولاد الدنيا ضوضاء وعنفا وزحمة. كانت ثلاثة لوريات من لوريات الشرطة تنزل من صناديقها الحديدية الكبيرة أمواجا من المجاذيب والمتشردين والمتسولين الذين تم جمعهم من الشوارع والأرصفة والأركان، في موجة تنظيف فجائية للمدينة تأهبا لاستقبال زائر كبير. ولم يكن من تم جمعهم ينزلون من اللوريات بانتظام ولا سلاسة ولا هدوء، بل كانوا ينزلون في صخب تحت وابل ضربات العساكر الذين كانوا يدلقونهم من أبواب اللوريات العالية دلقا على الأرض، ليستقبلهم وابل جديد من ضربات عساكر آخرين يدفعونهم للدخول في ساحة القسم بانتظام، أي انتظام وبينهم الكفيف والكسيح والأبله والمجنون!

كانت حالة صخب وفوضى حتى إن الأولاد فشلوا في مجرد عبور بوابة القسم، ولعدة مرات. وأخيرا استطاعوا أن ينسلُّوا من ركن البوابة إلى داخل حوش القسم، لكنهم لم يتمكنوا من التقدم خطوة واحدة باتجاه المكاتب، فقد كان هناك سياجان من العساكر الذين خلعوا قوايشهم الميري الثقيلة وراحوا ينهالون بها ضربا على أجساد المتسولين والمتشردين والمجاذيب حتى يسرعوا ويدخلوا

غرفة الحجز التي بدت وكأنها تبتلعهم في جوفها المظلم، فيختفون هناك وتخمد أصواتهم. لكن واحدا فقط ظل يقاوم الدخول في غرفة الحجز مقاومة مستميتة. ولم يستطع الأولاد رؤيته لأنه كان ضئيل الحجم بحيث إنه اختفي وسط حلقة العساكر والمخبرين الذين تجمعوا عليه يضربونه ويدفعونه، وسرعان ما دل صوته عليه..

إنه مجنون «الساعة كام»، الذي كان أحد مشاهير متشردي ومجاذيب المدينة، يظل يهيم في الشوارع طوال النهار بجسمه الضئيل المقدد، وهيئته الرثة، وسواد الوسخ الذي راكمته سنون التشرد على جسمه وثيابه وحذائه الواسع الكالح الذي كان يرتديه بلا جوارب. وكان مشهورا بقدرته على تحديد الوقت، من دون أن تكون معه ساعة، وبدقة بالغة. فما أن يسأله أحدهم «الساعة كام؟»، حتى يجيب صوته المقعقع الرنان الجهير بتحديد لا يكتفي بذكر الدقائق بل الثواني أيضا. وأكثر من ذلك كان يستطيع تحديد الوقت المقابل في أي عاصمة من عواصم العالم لحظة سؤاله، دون أي خطأ!

كان قد أنهك العساكر والمخبرين بمقاومته دفعهم له باتجاه غرفة الحجز، بل كان يروغ بين عصيهم وأياديهم ويلتف مندفعا للخروج من باب القسم، مرددا بصوته العالي العجيب «لأ يعني لأ. الساعة ثلاثة وخمستاشر دقيقة وحداشر ثانية. أنا لا سارق ولا قاتل.. ثلاثة وخمستاشر دقيقة واربعتاشر ثانية.. تخشيبه لأ يعني لأ... ثلاثة وخمستاشر دقيقـ..»، ولم يكمل إذاعة توقيته لأن العساكر والمخبرين بعد أن قاوم أياديهم وعصيهم طرحوه أرضا وراحوا يركلونه بأحذيتهم الميري الثقيلة، لكنه لم يهمد.

كان يتقبَّض مُقسيا جسمه الضئيل المقدد ليرتكز مثل قوس على جنبه الأيمن بينما قدماه في الحذاء الكالح الكبير الذي يرتديه بلا جوارب تُرفِّص وهو يدور في اتجاه عقارب الساعة، وكانت الركلات التي يتلقاها تجعل أقدامه ترفّص أسرع وأقوى، بينما دورانه يزداد سرعة، وصوته المُقعقِع الزاعق يتقطع «ثلاثة وسبعتاشر دقيقة وثلاثة وثلاثين ثانية... يا كلاب... ثلاثة وسبعتاشر دقيقة وأربعة وثلاثين ثانية.. يا كلاب». ثم لم يعد يذيع توقيتات ساعته العجيبة، إذ شنَّج ساقيه مفرودتين من دون أن يتوقف عن الدوران والترفيص، فتحول الترفيص إلى ما يشبه قصقصة شفرتي مقص جنوني، أو رفَّاص حي أخذ يحصد جلاديه حصدا بمروحته الأرضية التي تعرقل أقدامهم الراكلة، فيتهاوون أرضا في تتابع مذل. وعندما هجموا منحنين عليه ليلكموا رأسه، صاروا هدفا لجذبات يديه التي تجعل أقدامهم في مرمى مروحة ساقيه، وكانوا يهوون على الأرض ويتخبطون وينهضون ويضربون بشراسة ووحشية كما لو كانوا قد قرروا قتله.

عندما نجحت لكماتهم وركلاتهم المكثفة لصدره ودماغه في جعله ينقلب فيرتكز على جانبه الأيسر، تغير اتجاه دورانه، وتغيرت فعالية هذا الدوران في عكس اتجاه عقارب الساعة. ويبدو أن هذا الوضع لم يكن ملائما لتسريع دورانه وتفعيل رفصاته، فبدت حركته أبطأ وأضعف. ومع ذلك لم يبدُ أبدا أنه ينهزم. فقد كان يشتمهم بأعلى ما في صوته المقعقع، مطلقا الشتائم من أعماق صوته الذي بدا وكأنه هيمن على الدنيا في هذه الساعة، دون أن يذيع توقيت

ساعته الداخلية الخارقة بين الضربات. فقط يشتم وهو يقاوم بدورانه البطيء على الأرض، في الاتجاه الجديد الذي وضح أنه لم يكن يلائمه، فكانت رفصات قدميه أبطأ وأوهن، لكن شتيمته كانت راعدة كأنها لكمات وركلات يوجهها لرءوسهم، بل بصفقات احتقار لمخلوق بدا أنه لن يستسلم أبدا حتى يموت. ولم تكن شتيمته إلا تِكرارا لكلمة واحدة: «يا كلاب. يا كلاب. يا كلاب!».

توقف رفعت والأولاد يومها ملتصقين بسور فناء القسم الداخلي وعيونهم الذاهلة المبهورة تتابع المعركة العجيبة، التي انتهت على مشهد المروحة الحية أو الرفاص الذي يدور كليلا في اتجاه عكس عقارب الساعة، بينما صوته الداوي يلطم وجوه جلاديه بقسوة تفوق قسوة الضربات. فكان يُجَنُّ جنونهم أكثر. وعبر شواظ هذا الجنون انتبه واحد من المخبرين لوجود شاهد على مهزلتهم، بل أكثر من شاهد يمكن أن يذيعوا تفاصيل المهزلة في كل أرجاء المدينة فتتلاشى هيبة عصيهم وطبنجاتهم المخبأة تحت الثياب. واندفع المخبر بخيزرانته كالمسعور نحو الأولاد يلهبهم بلسعاتها ويكنسهم أمامه باتجاه باب القسم «واقفين هنا ليه يا أولاد الكلب.. بتتفرجوا على إيه يا أولاد الكلب.. بره يا بن الكلب انت وهوَّه».

خرج رفعت والأولاد من حوش القسم إلى الشارع العريض ومعهم ثياب الغريق. وطوال الأيام الخانقة التالية، أيام إبلاغ أهل نبيل، والبحث عن جثة الغريق، ثم العثور على الجثة عالقة عند بوابة هويس بعيد، وانطلاق صرخات النساء والتشييع والدفن و«العُلَق» الساخنة من الأهل للأولاد الذين غرق واحد منهم. كل ذلك لم

يكن غير قشرة تختفي تحتها في أعماق رفعت حياة عارمة فوارة لجسد ضئيل مقدد يتحول بجسارة مجنون إلى رفاص حي يطيح بعنفاته الباترة عصبة كاملة من رجال أشداء غلاظ قساة.

ظل رفعت يتحرق شوقا لانقضاء أيام السواد الأولى بعد دفن الغريق، لتشرق شمس يوم يجرب فيه رفاصه هو. وهو ما كان في أول معركة بين أولاد الحي وأحد الأحياء المجاورة، وصار علامة على طريقة متفردة في القتال شاعت عنها تسمية «المروحة»، المروحة التي اختصني بسر اكتشافها، والتي لم يبخل عليَّ بعدة دروس عملية لتجريبها بعد خروجنا من المدرسة معا في أرض خلاءٍ قريبة.

لم أبرع أبدا وأنا صغير في إجادة طريقة رفعت في القتال. لكنني عندما كبرت وصرت محاصرا بحلقة من جلادين متأنقين يخفون عيونهم وراء نظارات فاخرة سوداء ويطفحون شعورا بالقوة الغاشمة، كنت ممتلئا بروعة دوران رفاص حي عنيد في داخلي، وكنت أجلو في هذا الداخل صوتي عند النزال، سواء كنت أدور على جانبي الأيمن في اتجاه عقارب الساعة، أو على جانبي الأيسر في الاتجاه المعاكس، صارخا بصوت المنتصر على كل جبروتهم الوضيع، وعلى كل غرورهم التافه: «كلاب. كلاب. كلاب!».

بلغة الإشارة

شكرا للإزعاج. نعم شكرا للإزعاج، ولم لا؟! وبرغم القسوة التي أيقظنا بها، في الجزء الأخير من الليل، الجزء القرير من الليل. طيَّر النوم من بين أجفاننا، ونفض عن أبداننا آخر أغطية الاسترخاء. ضربنا بيده المباغتة في كل الأماكن، فقفزنا من أسرتنا مذهولين، مُباعدين الأيادي دهشةً والأقدام التماسا للتوازن، وكنا نتأرجح في غيمات خَدَر النوم.

صوت رهيب «صوت شيطان لا بد.. ينطلق من بوق شيطاني ما».. هكذا فكرنا ونحن نستعيد أول بوادر يقظتنا، بينما دفعتنا يد الصوت الجافية لنفتح النوافذ مسرعين، أبواب الشرفات مسرعين. نطل فنجد الليل.. الليل والصوت وكل الجيران وقد استيقظوا وراحوا من الشبابيك ومن الشرفات يطلون.. ينثنون وينظرون، ويعتدلون وينظرون، ويقلِّبون وجوههم في كل الأركـان، بحثا عن مصدر الصوت.. الرجال في البيجامات والجلاليب، والنسوة في قمصان النوم، والأطفال شرع بعضهم يبكي من بغتة الفزع. يتجسم الصوت في الظلمة الخاوية، فكأن صافرة غارة بشعة قد زُرعت في مكان خفي بين البيوت، وانطلقت بكامل قوة نفيرها المنفر، تضرب في عمق الليل، وتطلق قذائف الصوت المُصدِّع، المُمزِّق، العاوي.. في كل اتجاه.

* * *

بعد وقت من السحق المتواصل لأهداب سمعنا من جحافل ضوضاء الصوت، أخذنا نتشبث بأطراف يقظتنا، فيما كان كورس

الأطفال يكمل أبهة البكاء، طالِعا في الظلمة من كل النوافذ تقريبا ومن كل الشرفات. وتصاعدت فرقعات الهيستيريا من كيانات الإناث اللائي جنهن الصوت.. كن ينفجرن في صرخات مديدة ثم يتهاوين، أو ينخرطن في بكاء متسارع. وعبر الجلبة كانت زجاجات روح نشادر الإفاقة، وقطع القطن المبللة بالكولونيا، وقَطّارات الكورامين، ورءوس البصل الحار المفدوغة، تتواثب كلها بين النوافذ والشرفات، أو تعبر الأبواب بين الشقق التي توقّدت أنوارها الآن جميعا، لتبدأ حالة من حالات الاختلاط القسري، تتفتح بتوتر بين الجيران الذين لم يختلطوا أبدا من قبل، لتبادل كلمات الشكاية المعذّبة، والمهدئات، وللإغاثة في حالات الانهيار العصبي والإغماء والصدمة.

وعلى حافة ذلك الفزع، كانت طلائع الصبية أول الهابطين بملابس النوم على أرض الشارع، يكتشفون منابع الصوت، ويعلنون بالزعق من الشارع إلى النوافذ، إلى الشرفات، وإلى النجوم البعيدة والدنيا جميعا، أنباء اكتشافهم. فتهرول أقدام الرجال، وبعض النسوة أيضا.. تدب وهي تهبط الدرج بلهفة، فلا يَخفي دبيبها برغم هيمنة الصوت، فيما تخفق الأرجل وهي تسرع نحو بقعة الإفزاع. وكانت في الأيادي المقبوضة بتحفز عصيّ، وأيادي مقشات، ونشابات خبيز، ومفكات، وسكاكين، ومفاتيح أنابيب بوتاجاز، ومصادر للإضاءة من كل نوع.

* * *

وسط التقاطع بين شوارع منطقتنا الأربعة، وبعد مغالبة لرائحة القمامة التي أوشكت أن تغطي ما نتأ من جدران وسقف المخبأ

المهمل القديم. وفي ضوء الشموع المرتعشة، وبعض التورشات، ومصابيح التونجر، والتي مَدَّتها الأيادي في الظلمة عبر فتحات تهوية المخبأ، انحنينا وانثنينا والتوينا على أنفسنا بمشقة، وأدلينا بالرءوس خلال الفتحات وأمعنا، فرأينا الوحش الرابض في قلب المخبأ يعوي.. رأيناه بجبهته الباردة الصقيلة، وأصداغه الفولاذية المنتفخة، وعيونه المرايا، وخطمه النيكل، حيث خمَّنا وجود النفير.

رأينا السيارة الضخمة وهي تطلق «سرينتها» العالِقة، وكان باب الخندق موصودا ومرصودا بقفل نحاسي كبير.. هكذا: «السرينة» في السيارة، والسيارة في المخبأ الخالي، والمخبأ في التقاطع وسط البيوت.. كأن بوقا للتكبير يصب في بوق أكبر، «أمبليفاير» بدائي فظ يضخم صوت «الكلاكس» الذي توحش في جوف ليلنا.. يفزعنا، يُدحرجنا على الدرج، وفي الشارع، يطوينا فوق أكوام القمامة، ويلوي أعناقنا ونحن في انكفاء، ثم يُنهِضنا ويلمنا ويوقفنا أمام باب المخبأ.. حائرين.

رجل من بيننا كان يحاول فسخ القفل بيد مفتاح من مفاتيح أنابيب البوتاجاز. توقف عندما تساءل أحدنا في الظلمة عما إذا كان «فسخ قفل» يعد عملا قانونيا أم لا. واستوصانا آخر بالصبر قليلا، مخافة أن يتهمنا صاحب السيارة المجهول بسرقة شيء منها إن اقتحمناها في غيبته، وبخاصة أن حجمها ومظهرها يشيان بأنها تخص شخصا فائق الأهمية، أو أنها تابعة لجهة عليا خطيرة النفوذ قررت أن تتخذ من هذا المخبأ جراجا لها لسبب ما، خصوصا بعدما فقد المخبأ وظيفته الأصلية بعد توقف الحروب؟! فكأن ضوءا كاشفا، أنار لنا

ظلمة جهلنا فجأة، تراجعنا بلمتنا عن باب المخبأ.. خطوة ثم خطوة، وكلما تراجعنا خطوة كان عقد لمتنا ينفرط ويتناثر. ووجدنا أنفسنا نحن الرجال نعود فرادى إلى شرفات بيوتنا والنوافذ، وسط أطفالنا والنساء.. نتناقش في الأمر كجيران بأصوات مرتفعة تتصارخ في هواء الليل، وعبر الشوارع، وخلال دويّ الصوت.

* * *

أخذت أصواتنا مع الوقت تتراجع شيئا فشيئا داخل حلوقنا، وتستكين.. تسكت مُفسحة للصوت كل المدى، ليس لأننا بدأنا التسليم بعدم جدوى النقاش، لكن أيضا لأننا بدأنا نلاحظ، ونستغرب ظواهر طارئة تَعرِض لنا وتوغل فينا.. فنحن نتحادث رافعين أصواتنا أعلى ما تكون، لنسمع ونفهم، ومع ذلك نكاد لا نسمع ولا نفهم! تضيع بيننا معالم الكلام إذ يمتلئ بالفجوات، وكأننا نستعيد تسجيلا لأحاديث جرى فيها مسحٌ متقطعٌ للصوت.. ثمة جُمَلٌ ضائعة، وكلمات تساقطت من الجُمَل، وحروف تلاشت من الكلمات، حتى لم يعد لها جميعا من معنى.. أي معنى.

ثم إننا بدأنا نعاني من وخز بالآذان، استحال سريعا إلى ألم خفيف، وكان في الرءوس وشيش وصداع. وقليلا قليلا راح يشملنا إحساس بالدوار ـ الخمود ـ الخدر ـ والحمى الخفيفة. وعندما كنا نتحرك، نكتشف أننا نفقد الاتجاه ونضِلّ عن المرامي.. يقصد أحدنا حمام بيته، فينتبه بعد فوات الأوان إلى أنه واقف يفعل ذلك في حجرة الصالون! وتجري الأم لتأخذ وليدها الذي استيقظ يصرخ في مهده بغرفة النوم، فتفاجأ بنفسها مرتطمة بباب الشقة!

كان كل شيء فينا يتذبذب مع النغمة القاسية للصوت السادِر.. عضلاتنا المتوترة، رئاتنا، قلوبنا المضطربة، والمِعد التي نحسها كالمنقلبة.. نعاني من شعور مُبهِظ بجيشانٍ داخلي، فكأننا نتهيأ آليا للدفاع عن أنفسنا ومقاتلة عدوٍّ غامض. ثم ننفجر في نوبات عدوان مفاجئة على أطفالنا لأوهى الأسباب، أو نندفع في الإتيان بأفعال؟! وكأننا حيوانات أصابها اهتياج مفاجئ، فهي تتواثب دون تمهيد فيما بينها، ولا حرص أمام الصغار.

تكاثرت حالات القيء العصبي، والمغص المفاجئ، والصرع الذي لا جذور له، والإغماء. ونزل رجل من بيننا إلى باب المخبأ بعصا غليظة وهياج هيستيري.. أخذ يضرب الباب الحديدي بجنون، بجنون، بجنون وهو يصرخ، حتى أوشكت أن تتحطم عصاه، دون أن يجرؤ على تحطيم القفل برغم ذلك. ولم يكف الرجل عن الصراخ بعدها ونطَح باب الخندق الحديدي حتى أسرعنا نمسك به قبل أن يتحطم رأسه.

وفي اللحظة التي وصلنا فيها جميعا ـ على نحو ما ـ إلى حالة ذلك الرجل، بدا لنا، بشك وعدم تصديق، أننا في سبيل العثور على مَخْرَج.

* * *

كان الذي خطا أولى الخطوات طفلا، انطلق يتصايح، وقد دس أنامل سبابتيه في أذنيه: «راح يا بابا. والله راح. راح خالص». وعندما دسَّ الأب طرفي أصبعيه في أذنيه، بتردد وخجل في البدء، ملأت وجهه ابتسامة ظفر، فأسرعت الأم تضع أصبعيها في أذنيها،

وانتقل الأمر إلى سكان البيت المقابل عبر الشرفات والنوافذ. وعبر الشرفات والنوافذ كان أول الكشف يسرى.. ينتشر ويتطور، من مجرد سد للأذنين بالأصابع، إلى استخدام قطع القطن، وسماعات الترانزيستور مسدودة الثقوب، ووسائد سماعات «الهدفون» المتصلة بلا شيء غير السكون.

اختفى الصوت الرهيب كثيرا، فلم يبق منه غير قليل يُحتمَل، وبعض طنين في الآذان تآلفنا معه. وراحت أيادينا المنهَكة كالجسوم يُلوِّح بعضها لبعض ونحن ننسحب من الشرفات والنوافذ.. نغلقها، ونطفئ الأنوار لعل النوم يسرع إلى مخادعنا أخيرا، ويشملنا بعطفه.

* * *

هل كف نفير تلك السيارة وانقطع؟ وهل بقيت السيارة ذاتها في المخبأ الموصود أم ذهبت؟ إن أحدا منا لم يشغله ذلك في الصباح التالي، ولا ما تلاه من أيام، لأن سدادات آذاننا مكثت في مواضعها، لا تبرحها إلا للتغيير.. وها ذي هي تشيع بين الناس، في كل الأماكن، وتتطور فيما يشبه ثورة جديدة. فمن مجرد حشوات قطن عادية أو مفزلنة أو مشربة بشمع عسل النحل اللين، إلى سدادات من الوبر الزجاجي الناعم الذي لا يُهيِّج أشد بشرات الآذان حساسية، وسدادات من البلاستيك الحريري قابلة لإعادة الاستعمال ماركة «سونيكس» من ويمبلي تخفض من الصوت ٣٠ ديسيبل من ٣٠٠ هيرتز نغمة نقية، أي ما يقارب محو النصف من ضوضاء ميدان مزدحم. ثم تدفقت الإبداعات تأتينا.. من «ويلسون برودكتس ديفن» بينسلفانيا أقبلت سدادات الفينيل التي تخفض من الصوت ٥٤

ديسيبل من ٤٠٠ هيرتز، أي ما يساوى ملاشاة نصف صوت انطلاق مدفع قريب أو ضوضاء طائرة نفاثة تنطلق على مقربة خطوات.

ومن «كارسن سيتي» بنيفادا جاءتنا العجيبة: سدادات «سيف إير» التي تخفض انتقائيا الضوضاء المزعجة فحسب، فلا يسمع المرء وهو في قلب صخب محطة القطارات، مثلا، غير همس البنات المحبات وهن يودعن فتيانهن المسافرين، وبعض من صوصوة عصافير مختبئة في شجر الأطراف القليل المُغبَّر، وموسيقى هادئة صافية من إذاعات لا تلتقط موجاتها غير أجهزة الـ«إف إم» ذات الهوائيات السوامق.

وفي القمة ظهرت حوافظ الآذان وكواتمها «الأيرمف» التي تُحكِم الإطباق على السمع بشرائط مرنة تُربَط حول الرءوس، أو تُثبَّت داخل خوذاتٍ، كان الناس يخجلون من ارتدائها في البداية، ثم صارت معتادة لا تُلفت نظرا، ولا تُثير تعليقا لكثرتها، وكأنها الطواقي أو النظارات أو العمائم.

ثم إن هذه جميعها صارت تُباع في كل الأماكن، من السوق الحرة إلى السوبر ماركت والبوتيكات، حتى المحال العامة ودكاكين البقالة.. بل في أكشاك السجائر وعلى عربات الباعة الجائلين بدرجة ما، ولأنواع مقلدة من تيوان والصين أقل جودة وأهون سعرا، وإن كانت تفي بالغرض، وتعزز الانتشار.

* * *

اختفت كل الأصوات باستثناء بعض الطنين والصوت الواهن لدوران الدم ودمدمة أصوات الجسد الذاتية اللينة. ابتسم لنا وجه

الدنيا في نور هذا الكشف، فلم تعد أعصابنا تنهشها أسنان كُلَّابات الضوضاء المتفشية، ليس فقط في شوارعنا وميادينا الكبرى، بل أيضا في شوارع أحيائنا المزدحمة البسيطة وحواريها وأزقتها، وداخل البيوت. اختفت الموسيقى التصويرية البشعة للنوائب، فصار بإمكاننا أن نتقبل برضا مُصفّى كل النازِلات.. فالأبنية والجسور المشوب تشييدها بالفساد تنهار أمام عيوننا بنعومة بالغة، وفي الصمت الجليل تتصاعد سحائب ترابها كالحلم. وأنابيب البوتاجاز الصدئة تنفجر فلا يصعقنا هول المشاهد. الحرائق تشتعل بلا صوت، والسيارات تتصادم بتكتم وليونة، كما لو كانت من كرتون مبتل. والناس يتعاركون بالرصاص ويتطاعنون بالمُدى والخناجِر والسناكي والسِّنج، فكأن العين ترى مشاهد في فيلم صامت لا أكثر.

صارت الحياة دمثة وألين. وباستثناء ما يشاع عن أننا لن نتمكن على هذا النحو من التقاط النذير: الطقطقات النزقة، صوت تثاؤب جدران بيوتنا القديمة، وهي تتمطى قبيل انهيارها، وصوت تأود الجسور وهي تتفسخ لتهوى.. باستثناء ذلك، صرنا نعيش في نعيم رقراق الهدوء دفعتنا إليه يد ذاك الإزعاج. أليس يُشكر؟!

* * *

ما أسرع تبخر السنين، وما أغرب تكاثف التغيرات، وما أعجب انعطاف القصص. مرت سنوات وسنوات منذ ليلة اندلاع ذلك البوق لتلك السيارة في المخبأ المهجور. وكأن ذلك كله اختفي بسحر ساحر. كنا نمر بمكان المخبأ في البداية، فنلقي نظرة كسلى إلى جوفه المعتم، فنرى أحيانا تلك السيارة رابضة هناك، وأحيانا لا

نراها. لا نعرف متى تأوي إلى المخبأ ومتى تغادره، بل صرنا نشك فيما إذا كانت موجودة أو غير موجودة، بينما المخبأ تصعد على كوّات جدرانه وقضبان بوابته أكوام القمامة فتزيده إعتاما، ظلمة يتماهى فيها ما نرى مع ما نتخيل.

أخذنا نعتاد سد آذاننا فيزيد تآلفنا مع الصمت والسكوت. ثم بدأت لغة إشارة غير مسبوقة تنمو بيننا على مر السنين، لغة غدت كافية للتعبير عن كل ما نحتاج إليه فيما بيننا وبين ذوينا والجيران وكل من يدورون في فلك حينا الأبكمِ. وفي ذلك الخرس أخذت التغيرات التي نراها تبدو كأنها أخيلة تحِلّ وتمضي. المخبأ لم نُفاجأ باختفائه تماما تحت كوم قمامة عملاق اعتادت البلدية أن تُلقي عليه بنفايات حينا والأحياء المجاورة.

ثم فجأة، وفي عمق الليل، رأينا عدة بلدوزرات تنقض على هذه الكومة بسُعار، فتختفي في الصباح ويختفي معها المخبأ حتى آخر طوبة عند سفول جدرانه التي اكتشفنا مُستغربين كم كانت عميقة الغور في الأرض. وسرعان ما صعد من حفرة المخبأ الفاغرة برج من تلك الأبراج التي تشبه خوازيق عملاقة دميمة الأشكال والألوان وسط بيوتنا القديمة الضئيلة. وظلت بيوتنا مع الوقت تميل، ويتساند بعضها على بعض لكنها لا تتداعى. والجسور المُعمِّرة أخذت تلتوي ملامحها معلنة عن فرط شيخوختها، لكنها صمدت. المفاجأة كانت في انهيار عدة أبراج حديثة مما تم إقحامه بين بيوتنا. أحدها انهار فور اكتماله. وثمة جسر خرساني أقاموه على النهر حدث به هبوط فاجع بعد شهرين من افتتاحه. ومكثنا نعيش.

* * *

كبر أولادنا الذين كانوا أطفالا يوم انفجار صوت بوق تلك السيارة اللغز في المخبأ المهجور. لم يمكثوا أسرى صمتنا وشرعوا يُخالطون أبناء الأحياء البعيدة وحتى أطراف الضواحي ممن لم يعرفوا صمَمَنا وبُكْمَنا. يتبادلون معهم الأحاديث بآذان مفتوحة وأصوات لم تستسلم للضمور. وظلوا برغم ذلك يكتنزون لغة إشارة صمتنا كطُرفة موروثة يتبادلونها مع أترابهم الناطقين. حتى جاءتنا الأخبار بتحولات في هذه الطرفة تُضحك، وتُريب؟!

* * *

حكوا أن عربات المترو في قلب المدينة كانت ما أن تفتح أبوابها وتلفظ حشود ركابها، وتبتلع ركابا آخرين وتمضي، حتى يبدأ المشهد. لا تندفع أمواج البشر الهابطين على الرصيف هرولةً في طريق الخروج كالمعتاد. ثمة ما كان يعيق اندفاع هذه الأمواج البشرية في الحركة. مجموعة من الشبان كانت تتلكأ في تضاحكٍ لافتٍ يبطئ سير المندفعين ويوقف كثيرين منهم بدافع الفضول لشيء ما يلوح وشيك الحدوث. وفجأة يعتلي شاب من المُتضاحكين كتفي زميل له ويهتف. هتاف واسع الابتسام، لكنه بلا صوت، وإن بحرارة حركة الأذرع والأصابع والملامح، في لغة الإشارة التي تراكمت مفرداتها في حيّنا واتضح انتشارها المتسع خارج الحى. يهتف الشاب الباسم المحمول على كتفي زميله الباسم مثله، فتردد هتافه أعداد متزايدة ممن يحيطون به مكررين حركة الأصابع والوجوه والأجساد نفسها. مظاهرة صمت مرح تنطق به الملامح الشابة العابثة. وسرعان ما تتكون دائرة من

المشاهدين تتسع مُتابعةَ المرح ومنخرطة فيه. ثم ينفض المشهد في انصراف تكلله سُحب بهجةٍ صافيةٍ، ومومئة.

* * *

أخذت لغة إشارة حينا الأبكم البكماء تتحول إلى صرعة شبابية مثل موضات البناطيل ساقطة الخصور والجينز الممزق والمنسول عند الركب وقصات الشعر الغريبة. وصار شائعا رؤية الفتيان والفتيات يتسارَّون بهمس الحب عبر لغة الصمت الناطق هذه، في الأماكن العامة وعلى أرصفة الجسور فوق النهر. بل صارت هذه لغة العتاب والود وحتى الغضب والشتيمة. وعلى هامش الظاهرة راح افتتان الأجيال الجديدة من العائشين في المجتمع الرقمي بتحميل مواقع تواصلهم على الإنترنت بفيديوهات لا حديث فيها إلَّا بلغة الإشارة تلك. عندئذ لمعت بوارق الاشتباه وبرقت تعليمات التحرِّي، ففزعنا نحن الآباء والأمهات في الحي القديم، فزعا فاجأنا نحن أنفسنا، فزعا كأنما تحول إلى لطمات تذكرنا بأن لنا أصواتا وإن طال إغفاؤها وأسماعا وإن طُمِست سنين. ووجدنا أنفسنا بهذه الأصوات والأسماع نحادث أولادنا هلِعين مُحذِّرين. وكانوا لاستغرابنا يردون علينا، وهم يضحكون، بلغة الإشارة!

زوموو

في صباح باكر من صباحات الصيف الرطبة الساخنة ظهرت الكلمة على بعض الحيطان وأعمدة النور. مكتوبة بالطباشير بخط بسيط مرتبك يكاد لا يجذب نظر أحد. كلمة واحدة: «زومووو». وفي الصباح الباكر التالي ازداد انتشار الكلمة على الحيطان بخط أكبر وبألوان عديدة، وضح أنها ببخاخات الطلاء سريع الجفاف: زومووو.. زومووو.. زومووو..

استلفتت الكلمة أنظار الناس وبدءوا يتساءلون باستغراب عن معنى ذلك! وجاءت الإجابة في الأيام التالية في رسائل مختصرة على شاشات مئات الهواتف النقالة: «عبروا عن اعتراضكم يوم الانتخابات الملفقة بأن تزوموا».

ثم ظهرت على بعض مواقع الإنترنت التي يصعب تحديد مصادرها نداءات مستفيضة تحت عنوان «زوموا» تطالب المعترضين على تلك الانتخابات الهزلية بأن يزوموا.. مجرد أن يزوموا.. يعلنون رفضهم بطريقة لن تكلفهم شيئا ولن تعرضهم لأي خطر من السلطات أو أتباعها من البلطجية.. فالزومان لا يتطلب حتى أن يفتح الإنسان فمه فتحة صغيرة.. إنه مجرد صوت يحدثه الإنسان وفمه مغلق. بل يمكنه إحداثه وهو يرسم على وجهه ملامح ابتسامة أو استكانة أو جدية أو لامبالاة. صوت ممدود يتذبذب في الحلق ويتردد عبر الجمجمة والعنق وينتقل إلى الهواء وينتشر: «م مممممممم.. أو نننننننن». بأي صوت زوموا.. زوموا ولا

تخافوا. زوموا في الساعة الواحدة ظهر ذلك اليوم المنكود. فلا يُعقل أن يمدوا أياديهم الشرسة ليضبطوا ذبذبات الزومان في أعناقكم أو رءوسكم، وإن فعلوا فيكفي أن تسكتوا عن الزومان حتى تبتعد أصابعهم الوسخة عنكم لتعاودوا الزومان. «زوموا».

زوموا...

انتشرت الكلمة على امتداد مليون كيلو متر ربع هي مساحة البلاد من البحر إلى النهر ومن النهر إلى الصحراء. شاعت بين ثمانين مليون نسمة هم مجمل سكان البلاد تبعا لآخر الإحصاءات الرسمية. صارت الكلمة مفعمة بالجد والضحك واللعب والإثارة والترقب المدهش. أخذ الأولاد يكتبونها في قصاصات وينثرونها خلسة من النوافذ والشرفات. وصار الناس يتبادلونها همسا باسما أو جهرا ضاحكا عندما يلتقون أو وهم يفترقون. كأنها صارت بديلاً لكلمات السلام والوداع. بل صارت دندنات في أغنيات عابثة تنغرس فيها الكلمة بدلاً من بعض كلمات الأغنية الأصلية. مثل: «زوموا زوموا زوموا/ دا الفيل مربوط من خرطومو».

لكن اقتراب يوم الانتخابات كان يزيد من شعور الناس بتوتر مكتوم وإثارة متخوفة.

أتت الساعة الواحدة ظهر يوم الانتخابات. أتت في صمت مطبق يمكن أن تسمع فيه صوت الأنفاس في الصدور. وكان واضحا أن البلاد كلها تصيخ أسماعها.. حتى أفراد قوات الأمن الذين انتشروا بكثافة في الشوارع والميادين ومداخل المدن وأطراف الجسور بزيهم الأسود المقبض وهراواتهم المطاطية الثقيلة كانوا يصيخون.

أما البلطجية وأرباب السوابق الذين اعتاد ديناصورات الحكم أن يستعينوا بهم لردع وترويع كل من يجرؤ على إعلان اعتراضه فلم يظهر عليهم أدنى اهتمام بالأمر. ولم يكن أفراد المراقبة الدولية لحرية الانتخابات مدركين لهذا الصمت المريب الذي ظنوه من طبائع الأمور. سجلوا في دفاتر ملاحظاتهم أن الإقبال ضئيل للغاية فلم تزد نسبة المترددين على مكاتب الاقتراع التي زاروها عن ربع في المائة حتى منتصف النهار «لكن الإدلاء بالأصوات كان يتم في هدوء شديد ودون مخالفات تُذكر».

وضح أن معظم الناس لم يغادروا بيوتهم. وكان كثيرون منهم يُطلُّون من الشرفات والنوافذ في ترقب هادئ أقرب إلى الوداعة. ثم.. بدأ الصوت يولد من غياهب الصمت في تمام الساعة الواحدة وثلاث دقائق على وجه التحديد. صوت زومان غائم النبرات، زومان خافت وخفي أخذ يتضح ويشتد في نحو الواحدة وخمس دقائق. وفي الساعة الواحدة وعشر دقائق انفجرت الحياة التي كانت ساكنة في العاصمة.. في البلاد كلها... تضج بالزومان..

في العاصمة التي يسكنها خمسة وعشرون مليونا من البشر تطورت تفاعلات الزومان بشكل مذهل. فالحركة توقفت تماما. سكنت السيارات القليلة في الطرقات ونزل راكبوها يتابعون كتلة الزومان الهائلة المنبعثة من كل مكان ولا مكان. عشرون مليونا كانوا يزومون في العاصمة وحدها. عشرون مليونا على الأقل بعد استبعاد الرُّضَّع والصم والبكم والمحتضرين وديناصورات الحكم قطعا وأذنابهم. وكان أفراد الأمن والضباط الصغار الذين

حشدتهم أوامر الديناصورات في الشوارع منذ الفجر يبتسمون في شماتة واضحة. بل كان أغلبهم ينخرط سرا في الزومان. أما البلطجية وأرباب السوابق الذين تمت برمجتهم لمهمة واحدة هي الترويع الجسدي للمعارضة فلم يفهموا ما يحدث، بل رأوا في هذا الزومان الجماعي لعبة طريفة لم يفتهم أن يدخلوا فيها على طريقتهم، فانفتحت أفواههم مع أذرعهم في جعير طويل سرعان ما تم بتره. هاج فيهم البلطجية الأكبر ذوو البدلات الكاملة والنظارات السوداء وأربطة العنق. أمروهم بعصبية أن يتوقفوا عن هذا الجعير فورا لأنهم حمير لا يفهمون شيئا. هم فقط والأكبر منهم والأكبر من الأكبر منهم كانوا يفهمون معنى زومان مدينة كاملة.. بلد بحاله.. في وجود مراقبين دوليين و محطات تلفزيون عالمية و مراسلين أجانب. لكن الظاهرة تجاوزت فهمهم وحدود توقعاتهم وتوقعات الجميع عندما بدأت الظاهرة تتجاوز نفسها بشكل مذهل.. شكل يتجلى في مشاهد مذهلة أمام العيون...

في الساعة الواحدة وخمس وعشرين دقيقة كانت العاصمة المشتعلة بزومان الملايين تبدو كأنها دينامو جبار لتوليد موجات كاسحة من ذبذبات غير مرئية. وبدأ بعض أفراد الأمن والضباط الصغار الواقفين في عراء الشوارع يصابون بإعياء غامض ودوار ونوبات قيء جماعي. وكان المارة العاديون يهرولون مترنحين حاشرين أطراف سباباتهم في ثقوب آذانهم. وهناك من كانوا يهوون إلى الأرض ويتمرغون في ألم وذعر. لم تستمر ظاهرة الأعراض الجسدية الغريبة هذه غير خمس أو سبع دقائق تلاشت بعدها تماما

ثم بدأت ظاهرة خارقة تتجلى واضحة أمام الأبصار المذهولة: كانت الألوان تزول.. ألوان الملابس.. السيارات.. أعمدة النور.. الحيطان المدهونة.. لافتات التأييد لاستمرار السلطة.. يافطات المحال والدكاكين. كل الألوان المضافة كانت تختفي ولا تبقى غير تلك التي في أصل الأشياء. و كأن ذبذبات زومان الملايين صارت عاصفة من نوع غريب تجتاح كل شيء وتزيل المضاف إليه من ألوان.

قيل إنها موجات فوق صوتية جاءت نتاجا ثانويا لذبذبات صوت الزومان الأصلي وهو يعبر اللحم والعظام وينتقل إلى الهواء. وقيل بل موجات تحت صوتية تولدت بنفس الطريقة غير المقصودة. وأخذ الناس يذكرون ما يعرفونه في الواقع أو قرءوا عنه أو سمعوه أو رأوه في برامج التلفزيون.. مدافع الموجات الصوتية التي تشتت التجمعات أو تقتل بلا جراح. والغسالات التي أعلن اليابانيون عن اختراعها وهي تنظف بالموجات الصوتية وحدها دون ماء ولا مسحوق غسيل. والأجسام التي يمكن رفعها في الهواء وتحريكها في أي اتجاه بطاقة الموجات الصوتية وحدها. ثم هناك الموجات الصوتية التي تكشف الجنين في بطن أمه وتلك التي تحطم الحصوات في الكلى.

أمّا ما تولّد عن الزومان من موجات تحت صوتية أو فوق صوتية أو خليط من الاثنتين فهو اختلاف في الآراء لم يصمد أمام حقيقة واحدة مرئية واضحة كانت تتجلى أمام العيون المبهورة: كل الألوان تزول وتعود الأشياء إلى طبيعتها البكر.. الأقمشة تتحول إلى بيضاء رمادية.. أعمدة النور بنية بلون صدإ الحديد. اللافتات عارية بلا

كلمات.. يافطات المحال بلون الأبلكاش أو القصدير.. والحيطان بلون الأسمنت والرمل أو الطوب إلا إذا كانت مكسوة بالرخام أو الجرانيت أو الحجر.

غلب اللون الرمادي على كل شيء فلم يعد هناك لون واضح البقاء إلا في خضرة الشجر وزرقة السماء الفسيحة وما تعكسه على صفحة النهر. مشهد أخذ يتسع ويتأكد ويجعل العيون تجحظ والأفواه تنفتح. لكن الزومان لم ينقطع كأنما بقوة الدفع الذاتي أو بفقدان الملايين إمكانية السيطرة على أحبالهم الصوتية التي استمرأت الاهتزاز. وكان ديناصورات الحكم المعتق يتداعون لاجتماع عاجل في قصر القيادة.

لم تسلم قلعة الحكم من مصير كل شيء في العاصمة في تلك الساعة الخارقة من ساعات النهار. زحف اللون الرمادي زحفا كاسحا على ثياب جنود وضباط الحرس القيادي. الزي الكحلي المهيب لم يعد كحليا، والبيريهات الحمراء بلون الدم لم تعد حمراء. بهتت ألوان الخيوط الحريرية اللامعة التي كانت تطرز البادجات على الصدور والأكمام. واستحالت ذهبية النجوم و النسور والسيوف المتقاطعة لرتب الضباط إلى لون الصفيح الكالح. وكانت هناك صعوبة في التعرف على سيارات المرسيدس الرسمية التي أخذت تتوافد بسرعة. تلاشى دهانها الأسود اللامع وصارت مطفأة بلون الصاج القاتم. أما الديناصورات الذين أخذوا يترجلون من السيارات فقد بدوا أثقل وأسمج وأكثر ترهلاً بأجسامهم المتورمة أو المتيبسة في البدل والقمصان وربطات

العنق التي وحد بينها اللون الرمادي المغبر بعد زوال ألوانها. وكان أفدح ما أصاب هؤلاء الديناصورات من تغيير هو انكشاف رءوسهم وحواجبهم وشواربهم عن شعث أبيض لا جلال فيه بعد تلاشي صبغات الشعر التي كانوا يستوردونها من أغلى الأنواع في العالم. بدوا أشباحا مسنة غليظة تخرج من المجهول وهي تصعد الدرج الرخامي الفسيح باتجاه قاعة اجتماعات القيادة. وكان جنود الحرس والضباط الصغار الذين لم يفقدوا غير ألوان ملابسهم يبذلون جهدا كبيرا لكتم ضحكاتهم، لكن قهقهات ضاغطة لم تستطع إلا أن تنفلت منهم. ولم يملك بعض الديناصورات الذين انفجرت في وجوههم القهقهات إلا أن ينظروا بذعر إلى الوجوه الشابة التي تضحك. ذعر لم يعرفوه أبدا لأنهم كانوا هم من يفرضونه على الآخرين منذ نصف ساعة.. لا أكثر.

التأم مجلس الديناصورات الحاكم في القاعة المدججة بأحدث موانع التنصت والمواد العازلة للصوت والمضادة للقذائف. لكن الزومان المستمر اشتعاله في البلاد كان يتسلل إليهم وإن بدرجة أقل. تهالكوا بشعورهم البيضاء المطفأة على رءوسهم وفوق حواجبهم وتحت أنوفهم في المقاعد التي زالت ألوانها حول المائدة المستديرة التي كانت مشهدا يوميا من مشاهد السلطة الراسخة على شاشات التلفزيون الرسمي والجرائد التابعة. لكنها أيضا تهالكت بزوال طلاء الجليز العسلي اللامع الفاخر عن سطحها. بدت منضدة كبيرة كالحة بلون الخشب العاري بينما تنهال على محيطها بتهدُّل مرافق وسواعد وأكف الديناصورات الشائخة.

كانوا يترامقون في استغراب وكُره دفين. كل منهم لا يرى أمامه إلا حفنة من عواجيز أو غاد يعرف خباياهم و رزاياهم ويتناسى نفسه. كل منهم لا يرى فيمن يرمقه غير شيخ آثم لم يكف عن التصابي وهو يلتهم حقوقا ليست له ويبتذل سلطات لم يصُنها ويخون أمانات لم يحفظها. اندهش بعضهم وهو يكتشف تغير لون عيون البعض الذين لا بد أنهم كانوا يركِّبون عدسات ملونة انمحت ألوانها. اختفت الحمرة التي كانت تضج في وجوه البعض منهم ولا بد أنها كانت بتأثير مكياج ثابت أو مؤقت. ويبدو أن موجات الصوت التي أزالت الألوان لم تكتف بإزالة صبغات شعرهم وحمرة مكياجهم بل حركت حشوات البوتكس المحقونة في وجوههم لإخفاء الغضون والتجاعيد فصارت الحشوات كلاكيع وعادت التجاعيد والغضون وإن بتنافر هزلي. كل منهم كان يرى في الآخر كذابا ويبرر تاريخ كذبه الشخصي بضرورة مجاراة الكذب العام الذي صنعه الآخرون. يستشعرون في شيخوختهم التي انكشفت فجأة أنهم تورطوا في مستنقع. ويشعر كل منهم بأن الآخرين ورطوه في ذلك وما هو إلا حَمَل غررت به الذئاب.

نصف ساعة مرت في القاعة الرمادية وتحت السقف المتذبذب بزومان الملايين ولم ينطق أحدهم بكلمة. كان بعضهم يفتح فمه ليتفوه بشيء لكن فمه المفتوح يظل معلقا في صمته الفارغ قبل أن يعود إلى الانغلاق. ويبدو أن قادة الحرس الذين كان مسموحا لهم بدخول القاعة والخروج منها نقلوا إلى زملائهم في الخارج ما يحدث في الداخل. أخذت نوافذ القاعة تمتلئ بالوجوه الشابة

المطلة من وراء الزجاج المانع للصوت والمضاد للرصاص. كانوا يتأملون سكون الديناصورات التي وطأها الشيب بغتة وأصابها الخرس والجمود. ثم بدا أن هذه الوجوه الشابة في الخارج تضحك. بل تقهقه، لأن صوت قهقهاتها زاد وفاض والتف ودار ليتسلل إلى داخل القاعة من ثقوب مفاتيح الأبواب و ثغرات نوافذ التهوية. قهقهات عارمة من صدور قوية مدربة على الفتك راحت تغمر حفنة الديناصورات الذين تولاهم الرعب. أخذت عيون الديناصورات الكليلة تتأرجح في محاجرها وكل منهم يلوذ بأطلال الآخرين وهو يدرك يقينا ألاّ فائدة.

لا أحد يعرف متى توقف الزومان بالضبط لأنه تواصل خلال الليل وإن في خفوت. ولا أحد يعرف كيف نامت البلاد هذه الليلة. لكن الناس استيقظوا من نومهم المرهق مبكرين. كأنما أيقظهم منبه داخلي ملأه الفضول لمعرفة ماذا حدث وماذا سيحدث.

لقد اختفي ديناصورات الحكم بشكل غامض. لم يُعثَر لأي منهم على أثر في صباح البلاد التي استيقظت على عالم جديد لا ألوان فيه غير أخضر الشجر وأزرق السماء. وكان لا بد من تلوين الحياة من جديد.. نشط النقاشون والخطاطون والرسامون والصباغون في كل الأماكن. كانوا يعيدون إنطاق الواجهات والسجاجيد وفرش البيوت والسيارات ولعب الأطفال والملابس.. وعلم البلاد.. بألوان جديدة.

تميمة الألزهايمر

«لا يتعرف على أولاده»، وإن كان عندما ترتمي ابنته الصغرى في حضنه يحرك ذراعه ليحيطها بآلية باردة وبطء شديد من دون أن يضمها إليه. لا يعرف كيف يرتدي ملابسه. تنتابه نوبات ضيق مفاجئة فينفجر بصوت ليس لحيوان ولا للبشر. صوت يجهل الكلام «آآآآآآآآآآآتاااااااه هه. هاااااهه». لا يستقر في مكان ويأكل بآلية كأنه يأكل لشخص آخر غير مرئي. حصل على ٢٢ درجة في اختبار «بلسد» لقياس درجة الخرف. عانى من صعوبة في معرفة اسمه الثلاثي ولم يتعرف على الوقت ولا التاريخ ولا المكان. فاقد التركيز. لم يستطع عد ثلاثة أرقام تنازليا. نتيجة الأشعة المقطعية وأشعة الرنين المغناطيسي وتصوير المخ المكبر رقميا للفصوص الجانبية والبطين الثالث تُظهر جميعها ضمورا متسارعا للمخ. كما أن أشعة بي إي تي تقطع بتراجع حاد في التمثيل الغذائي للحاء المخ. لا، لم يكن يشرب. لا يوجد تاريخ إصابة بجلطات مخ سابقة لظهور الأعراض.

«كم عمره؟» سأل الطبيب الكبير نائبه الذي انتهى من تقديم الحالة، فأجاب قارئا من دفتر الدخول: «٤٢ سنة؟». «مستحيل. مستحيل».. صرخ الطبيب الكبير في وجه النائب، وفي حضور الزوجة الملتاعة.

(١)

في ظهيرة ذلك اليوم الفارق قبل أن يختفي بشهرين. راح الفنان

التشكيلي ممدوح دفراوي يهيئ نفسه للقاء تليفزيوني سيحضره في المساء وعلى الهواء مباشرة. إنها مهمة مغرية وثقيلة في الوقت نفسه. تغمره بعدها رشقات توقير مدغدغ عندما يتعرف عليه من شاهدوا البرنامج الذي ظهر فيه. تزهو زوجته ويغبطه الأولاد والأقارب. ويبدو محبوبا أكثر. منحة ثمينة لا تخص روحه لكنها تُسعد من يحبهم ويتحمل من أجلها ما لا يطيقه وما لم يتهيأ له من تبعاتها، فهو خجول. خجول برغم شهرته كرسام بارع ورحالة جريء. روحه المُغامِرة لم تكف عن حمله لارتياد عوالم قصية يعايش ناسها ويستلهم لوحاته وتصميماته من نفحات فتونها وفنونهم التلقائية البكر. قبائل الماوري البولينزية في جزر المحيط الهادي. قبائل البانتو في صحراء كاليهاري بالجنوب الإفريقي. البشارية في أقاصي صحرائنا الشرقية. النوبيون فيما تبقى من قراهم بالجنوب. بدو سيناء في الشرق. والأمازيغ من حافة الواحات الغربية حتى شاطئ الأطلسي. وبرغم روحه المغامرة تلك وقدرته على معايشة كل هؤلاء الناس في بيئاتهم الفطرية بانفتاح تام، فإنه ظل خجولا في حياة القاهرة. يكتنز حكايات مدهشة من ذكريات طوافه المبكر بكل تلك العوالم، لكنه لا يجود بها إلا بين أصحابه القدامى ومن يألفهم. وبالكاد ينجح عدد نادر من مقدمي ومقدمات البرامج في انتزاع القليل من حكاياته تلك. لكنه قليل مدهش يحرصون عليه برغم إجهاده لهم وشروطه عسيرة التحقيق.

يرفض الظهور في أيٍّ من برامج «التوك شو»، وبخاصة تلك التي يحضرها ضيوف متعددون وجمهور إستديو. وصار الظهور

الفردي أمام الكاميرا مع مذيع صديق أو مذيعة يألفها هو أقصى ما كان يحتمله. شرط أن يعرف مسبقا موضوع الحلقة التي سيظهر فيها أو يحدد هو الموضوع. ظهور يدفع فيه ثمنا باهظا من توتر أعصابه واشتعال ذهنه بما سيقوله وما لن يقوله. ثم يأتي السؤال المضني عن مظهره الذي سيبدو به على الشاشة. ماذا يرتدي؟.. هو الذي لا يرتدي إلا ما يريحه من ملابس قطنية لا يشترط فيها إلا أن تكون نظيفة وفاتحة الألوان، ويفضلها غير مكوية ليستمتع ببكارة ملمسها على جسمه. ثم كيف ستكون تسريحة شعره؟.. هو الذي لم يذهب إلى أي حلاق ويحلق لنفسه منذ ربع قرن!

كانت زوجته قد انتهت من تجهيز الغداء في انتظار رجوع الأولاد من المدرسة والبنت الصغرى من الحضانة، ودخلت غرفة النوم لتستريح بعد وقفة المطبخ الذي هدأت فيه الحركة. بدت الشقة فسيحة وعذبة السكون. ودخل هو الحمام ومعه كل أدوات الحلاقة التي يمتلكها: ماكينة فيليبس للقص بستة مقاسات. تبدأ بالدرجة واحد التي تترك الشعر بمقاس ٣ ملليمترات. وتزيد ٣ ملليمترات مع كل درجة حتى تصل إلى الدرجة السادسة التي تقص حتى مقاس ٨ , ١ ملليمتر. ولأنه حلاق ذاتي محترف، فلم يكن في حاجة إلى مرآة عاكسة حيث تكفي مرآة الحوض ليلقي على خلقته نظرة واحدة أخيرة.

العملية كلها محفوظة ويستطيع أن يجريها باللمس وهو مغمض العينين. يمر على قمة رأسه حيث الشعر أقل كثافة بالمقاس ٦. ويمشط الفودين والأجناب بمقاس ٤. أما القفا فيمكن أن يخففه

بمقاس ٣. وأخيرا ينزع مشط الماكينة المتحرك ليصل إلى درجة الزيرو ليسوي حواف القفا باللمس وكذلك الفودين. ثم تأتي النظرة النهائية عبر المرآة ليجري آخر التعديلات بعد إعادة المشط المتحرك فوق الشفرات وضبطه على الدرجة المُحدَّده للمهمة المطلوبة. وكانت هناك خصلة نافرة بجانب رأسه فوق أذنه اليمنى!

ثبَّت المقياس على ٤ وراح يمر على المكان ليسوي الخصلة النافرة وتنتهي العملية. و«ترررررر»، مر بالماكينة في مسار أفقى فوق الأذن ليهذب الخصلة النافرة فاستشعر برودة لم يعتدها، أحس بالماكينة تجري بصوت نهم كأنها آلة حصاد جديدة في حقل قمح ناضج. لم يكن ينظر في المرآة وهو يُجري هذه الخطوة الختامية والتفت بعد إنهائها إلى المرآة ليعاين النتيجة: «كارثة».

(٢)

رأى الكارثة شريطا أقرع تماما يعبر سواد الشعر في خط أفقي فوق أذنه اليمنى. لقد نسي أن يضع مشط الآلة فوق رأس الشفرات فكان يحلق بدرجة الزيرو برغم تحديده للمقاس ٤. «بلياتشو»! لم ير منظره غير منظر بلياتشو بهذا الخط الأقرع العريض المحدد الذي يدور حول جانب رأسه من الجبين إلى ما وراء الأذن. كاد يتهاوى ونظرته الضائعة معلقة على الخط الأقرع الواضح الطويل العابر فوق أذنه اليمنى. طريق جيد الرصف وسط حقل خصب. كاد يبكي من القهر. فهذا خطأ تقني يصعب إصلاحه برغم خبرة ربع قرن في الحلاقة الذاتية. لو أنه كان على درجة ٣ أو حتى ٢

لكان خفف الشعر كله على هذا المقاس واعتبرها حلقة «مصيف» أو نزوة تخفيف. لكن هذه كارثة لا يمكن إصلاحها إلا بكارثة موازية.. أن يحلق رأسه كله على الزيرو! إنها «موضة» شائعة بين رجال كثيرين في مثل سنه يدارون بها صلعاتهم. وصرعة بين رجال الأعمال وبعض الكهول الذين يريدون إبداء فحولتهم بجماجم فولاذية ثقيلة ولامعة. لكنه لم يتصور نفسه أبدا على هذه الهيئة. ثم أن يظهر بها في التلفزيون؟ مستحيل.

دخل على زوجته مخذولا مثل طفل اقترف ذنبا وجاء إلى أمه يعترف لتسامحه وتصلح ما اقترفه. رفع يدا بطيئة خجلة ليشير إلى الخط مديرا رأسه ناحيتها وقد كانت مضطجعة تقرأ في السرير. قصفته بنوبة ضحك انفلتت رغما عنها، فلم يشعر بأن هناك قسوة في العالم تعادلها. ولما رأت نظرات اللوم والأسف العميق في عينيه نهضت وراحت تتلمس الشريط الأقرع مغالبة رغبتها في الضحك، ثم متألمة راحت تمسح براحتها على رأسه. «البس طاقية». «طاقية في التلفزيون؟». كان سؤالا استنكاريا أردفه ببرهة صمت، بعدها أصدر قراره: «لا مفر.. أعتذِر لهم». وقبل أن تفتح فمها كان قد التقط هاتفه من فوق الكوميدينو وطلب مُعِدَّة البرنامج التي يعرفها. وراح يحبك الكذبة: «أستاذة مروة. أنا آسف جدا.. أنا مصاب والإصابة في الرأس وطبعا منظري غير مناسب أبدا للظهور في البرنامج وراسي ملفوفة بالشاش. أرجوكي اقبلي اعتذاري، وبلّغي اعتذاري للأستاذة مُنى والأستاذ عمرو».

كان يُجهِّز نفسه لتكثيف الكذبة بمزيد من الإضافات، لكنه فوجئ بتدفق عواطف المُعِدَّة التي راحت تسأله عن حجم الإصابة وتطمئن على سلامته وتستسمحه في الاطمئنان عليه بانتظام حتى يتعافى ويعود بالسلامة لموعد جديد. ارتمى متمددا بارتياح على السرير بعد انتهاء المكالمة. وعادت زوجته تنظر إلى رأسه وتضحك. ثم خبت «كريزة» ضحكها واكتست ملامحها بإهاب الجدية والحدب. راحت تستعرض معه سبل الخروج من المأزق، لكنه لم يكن يسمعها.

نهض وأحضر كابا مما يذهب به إلى النادي وارتداه ناظرا في مرآة التسريحة. كانت حافة الكاب لا تغطي الشريط الأقرع، بل تجعله أسطع ظهورا. ماذا يفعل؟ يمكنه أن يتغيب عن مرسمه في وسط البلد بضعة أيام حتى ينمو شعره ويتقبل الإصلاح. لكن ماذا عن الخروج للضرورات؟ ثم إن الأولاد سيعودون من المدرسة بعد قليل ويرونه بهذا الشكل؟ وبرقت في خاطره فكرة شريط بلاستر طبي عريض. شريط يلصقه على الشريط الأقرع فيبدو كضمادة على جرح. وكان شريط البلاستر مقنعا تماما وكافيا لتحويل منظر البلياتشو إلى مُصاب بجرح بسيط يدعو للتعاطف ولا يثير الهلع. «ممتاز»، كان ذلك تقريره النهائي وهو يعاين «المنظر» في المرآة بعد أن ارتدى ملابسه وألصق البلاستر واعتمر بالكاب. لكنه ما إن شعر بالاطمئنان على إمكانية خروجه من المأزق حتى ألغى إلحاح الخروج لإحضار الجرائد والمشتريات، وقرر البقاء في البيت. وكان منهَكا بالفعل وهو يستلقي على السرير بلا كاب ولا بلاستر.

(٣)

«بابا؟!!» لم يكمل ابنه الصغير تساؤله وهو يشير باستغراب وفزع إلى شريط رأسه الأقرع فور أن رآه وهو يفتح له الباب عائدا من المدرسة. ووجد نفسه يبادر الصغير بالضحك ويموه بالمزاح: «إيه.. حلقة جديدة اسمها رنج روود.. تحب أعملك واحدة؟». لم يستوعب الصغير المزحة. «لأ شكرا».. قالها بسخط وهو يُنزل حقيبة المدرسة الثقيلة، ومضى مباشرة إلى حجرته، بعد أن خلع حذاءه قذفا في هواء الطرقة تاركا والده عند الباب. وبينما كان الأب منشغلا بمتابعة نشرة أخبار الثانية في التلفزيون راح الولد يحوم بقربه ثم واجهه: «بابا.. بصراحة الحلقة دي وحشة.. وحشة جدا». ووجد نفسه يحاول استدراج الولد ثانية للمزاح: «رنج روود يا بني.. رنج رووود.. عارف يعني إيه؟». وأجابه الولد بنفاد صبر: «عارف.. طريق دائري».

عند الغداء استقر هو على رأس المائدة وزوجته قبالته وعلى يمينه جلست البنتان، وفي اليسار جلس الولد. لم تنتبه البنتان للجملة المنغمة التي راح الصغير يشاكس بها والده «رنج رووود. يارنج رووود. يارنج روود». لكن البنت الكبرى صرخت موقعة ملعقتها عندما نظرت إلى رأس أبيها «بابا مالك» قالتها بهلع ناهضة من مكانها مقتربة من رأس أبيها وأختها الصغرى تتبعها ببراءة حائرة. «حلقة جديدة اسمها رنج روود» قال الصغير وهو يعاود تنغيم العبارة «رنج روووود. يا رنج رووود». لكن والدته نهرته بينما كان الأب يفتعل الضحك والبنتان لا تفهمان ما يحدث.

(٤)

عاصفة سوداء خاطفة اجتاحت المزحة التي ظلت تتحرك في البيت على امتداد ثلاثة أيـام.. في اليوم الرابع من رصف الشريط الأقرع جاءت المكالمة متأخرة في المساء: «ممدوح.. إنت ممدوح.. احلف». كان المتحدث صديقا مقربا يهاتفه من الإمارات. «ألله. مالك يا حسام. إنت نسيت صوتي؟». لم يكن صديقه قد نسي صوته. بل كان لا يتوقع أن يسمع صوته بعد الآن. وانفجر على الهاتف يبكي. «مالك يا بني.. إيه يا حسام؟». «أنا كويس يا دوحه.. المهم انت.. حمد الله على سلامتك.. ألف حمد الله على السلامة». وأخذ الصديق يكفكف بكاءه بتماسك يشي به صوته المتهدج. كان يتصل بعد أن بلغه نبأ مفزع يؤكد أن ممدوح قد مات. «مُت؟» حاول بأقصى طاقته أن يسيطر على انهيار قلبه، وأن يلون طعنة حزنه المباغته بشعاع من ضحك مفتعل: «يا بني أنا زي الجن أهه. مالك انت. مين ابن المجرمة اللي عايز يموتني ده؟». ولم يكن من نقل النبأ الكاذب مجرما ولا ابن مجرمة. لقد كان صديقا مشتركا انهار عند سماعه النبأ من صديق ثالث نقله إليه أحدهم قال إنه سمعه في راديو سيارته وهو يقود في الطريق بين الشارقة ودبي وأراد أن يتأكد من رعب الخبر.

انتهت المكالمة وهو يضحك منتزعا ضحك صديقه المتصل من بعيد. لكن الضحك تبخر منقشعا عن حزنٍ عميقٍ قاتم بعد أن أغلق الخط.

أوشك شعوره بالحزن أن يجعله يتهاوى مذهولا وسط الغرفة.

وأسرعت زوجته تحتضنه مبهوتة مما تراه «ممدوح.. خير.. مالك؟ مالك؟». «تصوري.. إشاعة وصلت للإمارات إن انا مت». «يا ساتر يا رب. يا ساتر يا رب» أخذت تردد بهلع. وتَذكَّر هو ما حدث لفريد شوقي عندما نعوه في الإذاعة وهو حي، وسمع نعيه فأجهش بالبكاء. بكاء حارق لم يعرف من شاهدوه أي بكاء يشبهه. كثير من الفنانين الذين أفزعهم الخبر سارعوا إلى بيته في العجوزة. وأضناهم كذب الخبر وهم يحاولون تخفيفه عن وحش الشاشة المطعون في سريره. أبرع نجوم مصر أخرجوا خلاصة قدرتهم على الإبهاج لتضميد الجرح النافذ في قلب «الملك». صلاح السعدني وعادل إمام وسعيد صالح قدَّموا بين يدي وحش الشاشة ما لم يقدموه أبدا على أي شاشة أو مسرح. لكن فريد شوقي مات بعدها بفترة وجيزة. ولعل ذلك النعي المشئوم هو الذي عجل بوفاته. وها هو ذا يمر بتجربة مشابهة!

كيف حدث هذا؟ ليس هناك من أذاه ليكرهه إلى هذا الحد. وهو لا يعرف أحدا بهذه الدرجة من العبث المجرم. لعلها كرة ثلج أخذت تتدحرج خارجة من شريطه الصغير الأقرع، وراحت تكبر حتى صارت بضخامة وفظاعة الموت. كان هناك إعلان عن ظهوره في البرنامج مساء ولم يظهر. ولا بد أن مُعِدَّة البرنامج تحدثت عن اعتذاره بسبب «إصابة في الرأس». ولا بد أن هناك من تصور إصابة الرأس هذه شديدة الخطورة. ثم كان هناك من وصل بالخطورة إلى غرفة عمليات، فجراحة خطيرة في المخ، فغرفة إنعاش، فموت! وهو الآن ميت لدى عشرات وربما مئات أو آلاف من الناس الذين مرَّ بهم النبأ وهو يقطع أكثر من ألفين

وأربعمائة كيلو متر من القاهرة إلى دبي. ماذا يفعل؟! كان ضائعا في الغرفة التي أغلقت زوجته بابها حتى لا يشعر الأولاد بشيء. وراحت تبكي في صمت وهي تحتضنه. فيما كان يخفف عنها متضاحكا. يمسح دموعها ويقبل وجهها «بالذمَّة دا كلام. شفتيني وأنا ميت. بالذمة مش شكلي يجنن؟» وكانت الدعابة تتبدل داخله، وتطيح بالمزحة.

(٥)

«تجربة فنية. معايشة خارقة لمشاعر استثنائية» لماذا لا يترك الشائعة تعمل لبعض الوقت، ويراقب من موقع خفي مشاعر من يعرفهم أو لا يعرفهم تجاهه؟ ليمتحن حقيقة كثيرين من الناس، وحقيقة مكانته بينهم، وربما مكانته في الحياة من زاوية الموت؟

وضع تليفون البيت على الوضع صامتا، وكذلك هاتفه الجوال، واختفى عن الأنظار منبها على زوجته والأولاد أن يخبروا من يسألهم عنه بأنه مسافر، مسافر إلى مكان لم يخبرهم به، وإذا ألحوا في الحصول على إجابة محددة عن المكان أن يقولوا لهم إنه في الواحات يرسم مناظر معرضه القادم. أي واحات بالضبط؟ أوصاهم ألا يجيبوا. أن يزعموا كونهم لا يعرفون. وظل قابعا في منزله لا يخرج إلَّا تحت جُنح الظلام، ولا يظهر إلا في أماكن يتوقع ألا يرى فيها أحدا من معارفه. وإمعانا في الاختفاء كان يرتدي كابا بحافة كبيرة تغطي معظم وجهه ونظارة غامقة عريضة، وترك لحيته وشاربه ينموان بلا تشذيب. اختفى. صار شبحا ليليا وفي آخر الليل يهبط

ليشتري جرائد اليوم التالي. ومن مكمنه في مملكة الظل راح يراقب نمو شائعة موته وتحولها إلى خبر غير مؤكد، فخبر شبه مؤكد.

بدأ كاشف الأرقام في منزله يصاب بالجنون دون رنين، وكانت قائمة المكالمات التي لم يرد عليها تتمدد في هاتفه الجوال الصامت. سيل من أرقام الطالبين يعرف بعضها، ولا يعرف أكثرها. أرقام تتكرر بإلحاح، كان معظمها لمن يوقن أنهم يحبونه، وبعضها لمن يشك في حبهم له. بل كانت هناك مكالمات متكررة لبعض منافسيه وكارهيه. هل كانت مكالمات المحبين تعبر عن اللهفة والصدمة؟ وهل كان من يحسبهم حُسَّادًا وكارهين يريدون تأكيد موته لأنفسهم الراغبة في اختفائه؟ أم كانوا يكشفون عن وجه إنسانيٍّ آخر لإحساسهم به؟ هل ثمة حب عميق تحت قشرة التنافس في مجال يموج بالصراعات ويشبه الغابة برغم أن ساحته الجمال؟ هل كان الكواسر في هذه الغابة يكشفون عن قلوب إنسانية في حضرة موته الغائم؟ وهل كان محبوه يبكونه بدموع حقيقية أم كانوا يُعبِّرون عن حزنٍ عابر بحجم إحساسهم الواقعي به وقد زال غطاء مجاملة الحضور؟

أخذ يتابع في الصفحات الفنية تهويمات تحوم حول شائعة اختفائه. ثم كانت هناك تساؤلات واضحة عن موته. ولسبب مريب راحت الصفحات الفنية وبعض البرامج الثقافية تركز الحديث عن لوحاته. كان هناك من أظهروا رفقا في التناول لم يعتده منهم. وكان هناك منافقون كشفوا عن أنيابهم وهم يأكلون لحمه ميتا بالباطل مُدعين حيدة النقد. ثم بدأ جرس الباب يدق بلهفة. أخواته البنات كن يجئن بدموع قرحها البكاء وما أن يروه حتى ينهرن باكيات وهن

يندفعن لاحتضانه. شقيقه جاء صامتا وظل لا يتكلم مكتفيا بأن ينظر إليه كل فترة ويبكي. أصدقاء قليلون جاءوا كاتمين السؤال في قلوبهم وانصرفوا وهم يتنهدون ارتياحا بعد رؤيته. أحدهم جاء بفضولٍ غالب ومضى مخذول الهيئة كأنما أصيب بالإحباط لرؤيته حيا.

لم يجرؤ أحد من زواره على البوح بسر مجيئه غير صديق عمر متصعلك وضح أنه أجَّل حضوره حتى ينسطل بتعميرة كاملة ليقوى على البوح. وعندما رآه أخذ يضحك، يضحك ضحكة الحشاشين المقهقهة الساعلة التي لا تهدأ حتى تنبعث من جديد. كان لا يني يردد «تصدق ياله يا ممدوح انت حلو وانت ميت». «غريبة يا أخي إن الإنسان يتكلم وهو ميت» «الله هو الميتين بيشربوا شاي؟ وكمان بالقرنفل يا بن الرايقة؟» «مدلع نفسك حتى وانت ميت يا دوحه». وعندما أراد إيقافه: «إيه حكاية موت وميِّت اللي انت ماسكها دي يا بن المسطولة» وهنا نظر إليه صديقه المسطول بعينيه الحمراوين وقفز يحتضنه منهارا في بُكاءٍ جهيرٍ ناشِج. ومع التهدئة كشف الصديق عن استتباب خبر موته الذي ملأ البلد، وعن نذالات راحت تزيحه عن مواقع كان يشغلها، وتعاقدات أوغاد أخذت تطيح بتعاقدات أبرمها من قبل في مجال تصميم لوحات الزجاج الملون. ولم تخلُ الحكايات من ملامح نبالة أبداها بعضهم وإصرار على الدفاع عنه حتى برغم ترجيحهم موته. كان ميتا إلى حد لم يتصوره خارج بيته وبعيدا عن عباءة الليل التي يختبئ فيها. كان ميتا موتا تتطلب إزاحته الكثير من جهود الحضور في الحياة.

(٦)

هو وزوجته وصديقه الذي أفاق من انسطاله مع بضعة فناجين نهوة مُرّة وطبق مخلل. ثلاثتهم والأولاد الذين راحوا يحومون حولهم غير فاهمين ما يحدث شرعوا يخططون لدفع غائلة موته وإعادته للوجود.«لو كذّبت الخبر ممكن يتأكد أكتر». «رُد عادي واخرج كتير واحضر هنا وهنا وأعطِ أخبار للصحافة». كانت زوجته وصديقه يرسمان له خططا لنفي موته، بينما كانت الحياة في داخله.. ترتعش.

اندفع يمعن في تأكيد وجوده حيا وهو لا يدري أنه يوغل في الترويج لخبر موته الذي كان يلهو به من قبل. يتصل به الأهل والأصدقاء بأصوات مرتعشة فيجيبهم بصوت صاخب ومزاح متعمد حتى إنهم شكوا في أن يكون هوَ هوَ. يرتاد حفلات الاستقبال التي كان نادرا ما يستجيب لدعواتها، ويظل يدور بين المدعوين بانفتاح غريب عن طبيعته ليقول إنني هنا. وكان ذلك يتحول إلى افتراض أن شخصا آخر يشبهه يحل بمكانه. يحضر افتتاح معارض وندوات مُزاحما ليتقدم الحضور هو الذي كان يندر الإحساس بحضوره، فينزلق إلى غياب أعمق في ذاكرة من يربكهم سلوكه الجديد المفاجئ. راح يكثر من إعطاء الأخبار عن معارضه القادمة ومشروعاته المستقبلية وحتى عن أحلام يقظته فيتحول إلى طيف.

وعندما نما شعره أخيرا ليمكن تسوية رأسه كلها بمقاس ٢، أي بطول يقارب السنتيمتر، ذهب إلى الحلاق لأول مرة منذ سنوات

بعيدة لأنه صار مرعوبا من ارتكاب خطإٍ قاتلٍ جديد. وخرج من محل الحلاق برأس مختلف تماما عن رأسه الذي اعتاده من عرفوه على مدى سنوات وسنوات. سوالف مفتوحة بخطوط حادة تناقض سوالفه المقفولة التي ظلت تغطي منبتي أذنيه فيما قبل. ورأس صغير بشعر منحه التقصير إحساسا بالانسراح على عكس شعره الأجعد السابق. وعندما ظهر في أكثر من برنامج من هذه البرامج التي كان ينبذها والمسماة «توك شو» أقسم كثيرون ممن رأوه من قبل في الواقع أو على صفحات الجرائد أو على الشاشات أن هذه تسجيلات عمرها يرجع لسنوات ماضية، حيث كان أصغر بخمس سنوات على الأقل. ثم أوقف كل هذه النشاطات لأنه ظل يقرأ في العيون نظرات غريبة تشتمله بإحساس التحديق في ميت.

(٧)

«ممدوح.. مالك؟» سألته زوجته وهي تحس به يستيقظ قبل الفجر لليوم الثاني، من دون أن يكون هناك ما يفعله. يجلس في الظلام متكوما على نفسه في جوف أحد الفوتيهات في الصالة ويلفه صمت مريب. ثم اكتشفت أنه يبكي بلا صوت. رأت بللا يلمع على وجهه في انعكاس أضواء الشارع المتسللة عبر زجاج الواجهة. وعندما مدت أناملها إلى وجهه تتحقق من هاجسها انقبض قلبها. أشعلت ضوء الصالة الصغير حتى لا تجذب نظر الأولاد النائمين فرأت بكاءه الغريب. بل رأت بكاءً لم تر مثله. عيناه مفتوحتان في شرودٍ تمتلئان وتفيضان بدفق دموع غزيرة لا مجرد قطرات. ضمته

فلم يجهش ولم يرتعش نحييه «مالك؟ مالك؟ مالك يا حبيبي؟ بسم الله الرحمن الرحيم. بسم الله الرحمن الرحيم». وحاولت مداعبته لتكف عيناه عن هذا الفيض. بل تجاوزت أقصى حدود مداعبتها ومدت يدها إليه في تدلل لم تجرؤ عليه أبدا من قبل، فلم تجده غير ذابل ومنكمش على نفسه وتعتريه برودة، هو الذي لم يكن غير منتفض دائما ومتقد السخونة. شعرت بالرعب والعجز فكفت عن محاولاتها وجلست إلى جواره هامدة حتى طلع النهار. رأت عينيه حمراوين من أثر البكاء. «ادخل كمل نومك علشان الأولاد ما يشوفوكش بالحالة دي». وجذبت يده فأطاعها مثل طفل أنهكته الحُمَّى.

غاب عن سُفرة الإفطار لأول مرة منذ سنوات بعيدة. غاب أيضا عن سُفرة الغداء. ولم يتناول شيئا حتى ألحت عليه زوجته في المساء بكوب من عصير البرتقال لم يأخذ منه غير رشفة. وواصل تواريه عن عيون الأولاد في الأيام التالية. حتى طفلته الصغرى «تميمة» التي كان يعشقها تحاشى لقاءها. وواصلت زوجته اختلاق الحجج لتُسكت أسئلة الأولاد «بابا عنده نزلة برد. بابا واخد أدويه شديدة مهمداه». لكن وجوم البيت أخذ يزحف على أصوات الصغار أيضا ويطفئ رنين ضحكاتهم. ولم يكن ممكنا أن تقف زوجته مكتوفة اليدين أمام ما تراه.

(٨)

«قرص دوكسبين ١٥ ميلليجرام مرتين يوميا» هذا ما وصفه طبيب الأمراض النفسية للرجل الذي أخذته زوجته إلى عيادته متساندا عليها حتى لا ينهار في الطريق. كان يتلاشى من فرط زهده في

الطعام ويجف عوده بما يسفحه من دموع لا تنقطع. وبعد ثمانية أيام أوقف الدوكسبين الدموع وحرك الشهية للطعام قليلا فصار يجلس مع أولاده على الغداء لكنه لا يتناول إلا لقيمات. لم يكن يشاركهم إفطارهم كعادته القديمة قبل أن يذهبوا إلى المدرسة لأنه كان يتأخر في استيقاظه بعد أن يكون الأرق قد مزق نومه في الليل. كان ينام مبكرا فلا يحضر عشاءهم لكنهم ما أن يخلدوا للنوم حتى يستيقظ. في البداية كان يتحرك هشا وبطيئا كشبح في ظلام الشقة الساكنة. ثم بدأ يُحدِث ضوضاء صغيرة تجعل زوجته تستيقظ لتجلس معه بعض الوقت مغالبة نعاسها حتى تطمئن عليه، ثم تنسحب لتكمل نومها لتكون قادرة على أداء واجبات الصباح قبل ذهاب الأولاد إلى مدارسهم. لكن قدرتها على النعاس تمزقت تماما عندما تبعته فور إحساسها بغرابة استيقاظه هذه المرة بعد منتصف الليل..

وجدته يهيم بتشوش وارتباك ويصطدم بالمقاعد من دون أن يجلس على أحدها، ثم يتوقف ضائعا في العتمة محدقا إلى نقطة لا نهائية البعد غامضة في مسقط الشعاع المتسلل من الشارع عبر زجاج النافذة. ثم كانت لحظة رعبها الأكبر حين أوقدت النور ووقفت أمامه فلم يتحرك ولم يرمش كأنه لا يراها. كان لا يعرفها. حاولت ضمه فتملص بضيق من دون أن تعود نظرته الغامضة من ضياعها في اللاشيء. حاولت أن تهزه لتتنبه نظرته ويتنبه إليها ففوجئت به ينفجر في نوبة هياج كان خلالها يزأر ويزوم كأنه فقد القدرة على استخدام اللغة. «مممم!!!!! هـيييبي». شرعت تقترب منه وهي تناديه في رجاءٍ حارٍّ تخافته بأقصى ما تستطيع «ممدوح بص لي.. ممدوح إهدا.. إهدا

يا حبيبي.. أنا فاتن. ممدوح. يا رب. يا رب». لكنه لم يستجب لها. ولم يتكلم. وأخذت الأنوار تُضاء والأولاد يجيئون.. يطير النعاس من عيونهم وتحل بمكان النوم الدموع. لكنه لا يرِقّ لدموعهم. كأنه لا يراهم. يبدو شبحا يطل من عالم غريب على عالم يستغربه.

(٩)

"bitter marvel", "black miracle" (أعجوبة مريرة، معجزة سوداء). هكذا وصف أستاذ المخ والأعصاب الكبير لتلميذه ونائبه الشاب حالة الرجل التي قدمها أمامه، والتي تم تشخيصها عتها أوليا مبكرا، مبكرا للغاية، وخاطِفا في تدهوره، من نوع الألزهايمر PDDAT. أعجوبة مريرة لعاصفة عاتية وصامتة لم تستغرق أكثر من شهرين في مرورها فوق دماغ الرجل لتُجدِب قشرة مخه العليا، لحاء الوعي والإدراك الأثمن والأحدث، وتتركه ميتا في الحياة، يحدق كما بعيون الموتى إلى نقطة في البعد اللانهائي خارج وجود البشر والحياة البشرية، لا يستجيب ولا يجيب، ويتحرك في متاهة طيف أو شبح. شبح دائم التجوال كأنه يهيم في وادي الظلال. موجود وغائب، حي وميت، كبر أكثر من أربعين سنة في شهرين فقط. ولا علاج حقيقي له حتى الآن، بل ذوو المريض المُقدَّرة عليهم العناية به هم الأولى بالعلاج.. هكذا تقول كل مراجع المرض، وتُشدِّد على الانتباه إليه، وقد شدد الأستاذ على تلميذه أن يفعل.

علاج نفسي تدعيمي راحت تخضع له الزوجة التي وقعت على رأسها الكارثة حتى لا تنهار. وكانت مضطرة إلى أن تُحضر معها الابنة

الصغرى «تميمة»، كلما أتت إلى المصحة التي أُودع بها الزوج، لأن موعد جلستها كان يتقاطع مع موعد خروج روضة الطفلة. اطمأنت إلى سلامة أن تتركها في عنبر عته المسنين، حيث يوجد والدها الغائب عن الوجود. وبخاصة أن الطبيب النائب صار مولعا بالصغيرة التي كانت جميلة ذكية، ولطيفة أليفة بشكل يصعب مقاومته. يبتهج بحضورها ويمطرها بالشيكولاتة واللعب كلما جاءت. تلعب هنا وهناك منجذبة بخيط غامض ورهيف إلى والدها الملفوف بالتيه، تلاعبه وهو صامت وجامد، وتحدق بنظراتها المؤثرة الجميلة في عينيه الشاخصتين إلى لا شيء، تحاول أن تطعمه قطعة مما تأكل. تمل محادثته وملاعبته التي بلا مجيب فتذهب لتلعب هنا أو هناك، لكن ذلك الخيط اللامرئي يعيدها إليه، كأنها لا تيأس أبدا. نوع من الإدراك الغامض في مواجهة إدراكٍ تلاشى، فهل حقا تلاشى، أم يكون كامنا ومختفيا في مكان ما؟ قبو مظلم في غياهب العقل له مفاتيح سرية وشروط للاستجابة. فما هي هذه الشروط؟ وأين تختفي المفاتيح؟ أسئلة كان الطبيب النائب يكررها داخله وهو يطوف ببصره على نزلاء عنبر المسنين فيتوقف عند الحالة الاستثنائية - بالعمر - في هذا العنبر، وقفات متألمة ويائسة وآملة بيأس كان يسجلها جميعا في دفتر ملاحظاته الخاصة كطبيب متحمس تُحيِّره طلاسم العقل وتُذله معضلة الألزهايمر التي ابتلعت عقل والده ويُرجِّح أنها بئر مفتوحة لتبتلعه هو أيضا وإن بعد حين، معضلة يحلم بحلها، بل الانتصار على إرهابها له وترويعها للناس. ويفيق من أحلامه على بارقٍ خاطفٍ في صوت صغير.. صغير.. صغير.

«بُص لي هنا يا موحة.. بلاش تبص بعيد في الحتة الوحشة دي.. ياخ ياخ.. إيدك باردة.. افتحها أدفيها لك بإيدي.. إيدي صغيرة بس دافية.. افتح إيدك كويس.. شاطر يا موحة.. ياخ ياخ.. والله إيدك بقت سخنة.. ما تمسكش إيدي جامد كده يا موحة لاحسن توجعني.. أنا قلت لك بص لي واضحك مش تبص وتعيط.. أزعل منك يا موحة.. يا بابا..بابا..بابا».

كانت الصغيرة تشب على قدميها الصغيرتين لتطول ذقن الرجل الناحل اليابس الذي كان جالسا محنيا في جمود. تقبل ذقنه المبتلة بدموع مفاجئة تفجرت من عينيه التائهتين، هل يُعقَل؟ دموع؟! تساءل الطبيب الشاب مذهولا وأخذ يكرر السؤال المتعجِّب، دموع؟! دموع؟!». دموع لم تذرفها أبدا عيون الهائمين في وادي الظلال، وادي الألزهايمر، وادي الغياب برغم الحضور. عيون لا تنظر إلى شيء محدد لأنها لا ترى شيئا محددا. ليست حتى كعيون المحتضرين التي تنظر إلى اللانهاية قبل انطفائها النهائي. عيون الألزهايمر الخاوية التي لا ترى غير الخواء. ومن خوائها يستحيل أن تتدفق الدموع. هذه دموع انفعال حي. «انفعال حي». «انفعال حي» - ظل الطبيب النائب يرددها وقد وقف مشدوها يراقب مشهد الصغيرة التي يحبها ولحظتها المدهشة تلك مع أبيها..

«الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يعبر عن عواطفه بذرف الدموع». معلومة سطعت بقوة في ذاكرة الطبيب الشاب بينما هو واقف يرنو إلى المشهد الاستثنائي أمامه مُحاذرا الاقتراب خشية إرباك المفاجأة. فالدموع ظاهرة إنسانية فريدة، ظاهرة صحة نفسية أيا كان موقعها

في الحزن أو الفرح، فهل ما يراه أعجوبة مضادة للأعجوبة المريرة في حالة رجل ذكي وموهوب يضربه الألزهايمر في عمر الأربعين؟ أعجوبة مضادة واعدة يمسك بطرف خيطها الرفيع الشفيف مقررا أن يستعيد قصة الفنان ممدوح دفراوي.. كلها من جديد، يدقق فيها، يراجعها، ويخايله مجد غامض ربما ينسب إليه اكتشافا طبيا لم يسبقه إليه أحد. انقلاب خارق في قوانين الطب ومُسلَّمات الألزهايمر السائدة. انقلاب فجرته لمسات طفلة صغيرة لجمود أبيها الذي تحبه ولم يغب عن روحها الغضة أبدا أنه يحبها. غمرته دون انقطاع بهذا الحب المثابر الذي لا يعرف الكلل ولا يقبل الاستبدال. قطرات الماء الصافية التي تهبط قطرة قطرة على الصخرة الجامدة حتى توهن صلابتها فتستسلم لإرادة الصفاء، وتنشق عن قلب بكر ينكشف للنور بعد عتمة وغيبة، فكأنه قلب جديد.. عقل جديد.


الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

صياد النسيم

«صياد النسيم» ليس مجرد عنوان لقصة من القصص الست عشرة في هذا الكتاب، بل هو إشارة إلى روح الكتابة التي تستخرج من هجير الواقع نسائم سحرية خافية، مواسية بعذوبتها، وناقدة برفيفها، يبرع في استخراجها من مكامنها - بدأب المعرفة وحساسية الفن - الدكتور محمد المخزنجي، أحد أهم فرسان القصة العربية الحديثة منذ ظهور كتابه الأول «الآتي» وحتى الآن، فهو لا يزال يكتشف لهذا الفن آفاقًا غير مطروقة، يرتادها بابتكارات نشطة وجرأة لا تفتر، وروح حلوة بأقصى المستطاع، في مواجهة البلادة والقسوة.

محمد المخزنجي: وُلِد في المنصورة وتخرج في كلية الطب بجامعتها، وتخصص في الطب النفسي بأوكرانيا، ثم هجر العمل الطبي إلى الصحافة الثقافية محررا علميا لمجلة العربي، ثم أصبح كاتبا حرا يتفرَّد بمزج العلم والأدب في كتاباته للصحافة. صدرت له ثمانية كتب قصصية وكتاب في أدب الرحلات وآخر عن الطب التكميلي وكتابان في الأدب البيئي للناشئة وكتاب في قالب «رواية الحقيقة القصصية» عن كارثة تشيرنوبل. تُرجمت بعض أعماله إلى الألمانية والروسية والإنجليزية. ونوقشت عن كتاباته القصصية عدة رسائل جامعية بمصر ورسالة دكتوراه بجامعة إنديانا الأمريكية.



دار الشروق
www.shorouk.com